مكتبتنا العربية

المحرم سنة ١٣٦٨ | المجلد العشرون

٨١

مجلة الأزهر

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

مكتبتنا العربية

مجلة الأزهر

المجلد العشرون

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمد فريد وجدي بك

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الاشتراك السنوى ٤٠ لمصر والسودان
٥٠ لخارج القطر المصرى

ثمن العدد ٤٠ مليما

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر
١٩٤٨

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة العشرون لمجلة الأزهر

الحمد لله على تواتر آلائه . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ، محمد وعلى آله وصحبه وأوليائه .

أما بعد ، فإننا نفتتح بهذا الجزء من مجلة الأزهر سنتها العشرين ، مناضلة عن الإسلام ، مقومة للأخلاق ، داحضة للشبهات ، ناصرة للسنة ، مميتة للبدعة ؛ وما نجده من إقبال القراء عليها ، وإعجاب أولى البصر بها ، يشجعنا على المضى بها قُدُما على السمت الذى توخيناه .

وقد جرينا أخيرا على طريقة عادت على قرائها بالفوائد الجزيلة، وهى الاستكثار من كتابة العلماء الأزهريين ، كل فى الفرع من العلم الذى يقوم بتدريسه . أو مايمت إليه بسبب ؛ فأصبحت مجلة الأزهر تمثل الجامعة الأزهرية بكل معانى هذه الكلمة . وليس هذا بقليل ؛ فإن العالم الاسلامى كله يتطلع الى ما يدرس فى الأزهر ، ويتوق لأن يقرأ لأهله ما ينضمهم فى عقائدهم وعاداتهم وسيرتهم؛ فيجد فى مجلة الأزهر طلبته ، وكانت أعز عليه من كل مأمول .

لا جرم أن مجلة الأزهر لسان الأزهر الناطق ، وعقله المدبر ، وصوته الرنان ، يصل إلى سمع كل مسلم فى أقصى الأرض ؛ فإن كان لا يفهمها إلا من درس العربية ، فزيدتها تترجم لهم بلسانهم ، يقوم بذلك رجال منهم أسعدهم الحظ بالشخوص إلى مصر ، والالتحاق بالأزهر ، وأخذ العلم عن شيوخه الموقرين .

وليست مجلة الأزهر مقطوعة الصلة بأية ناحية من نواحى العالم ، وما يدور فيه مما يختص بالدين على وجه عام ، وبالإسلام على وجه خاص ؛ فإن من موظفيها

مكتبتنا العربية

من حذقوا اللغات الأجنبية ، فهم متصلون بالعالم الأجنبى وينقلون عن مجلاته وجرائده ما يجدّ فيها من البحوث القيمة ، أو ما يستحدث من الشبهات العلمية والفلسفية فيدحضونها . وهذا من أمسّ الأعمال بحاجة النشء فى هذا العصر الذى اشتدت فيه مناهضة الماديين للدين .

هذا موقف شُكر لله على ما هدى القائمين على الدين إلى إيجاده ، وقد تتابع على الأزهر شيوخ أجلاء فى هذه العشرين السنة الأخيرة ، فحظيت منهم جميعا بالتأييد التام ، نخص بالذكر منهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر الحالى ؛ فهو عظيم العناية بها ، شديد الرغبة فى ترقيتها .

وإذا ذكرت مجلة الأزهر ، وجب رفع واجب الشكر والإخلاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ؛ فهو حفظه الله يحبوها برعايته السامية ، ويخصها بعنايته العالية ، لا زال ملكه وطيد الأركان ، ودولته سامقة البنيان ، بفضل الله وكرمه .

محمد فريد وجدى

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مكتبتنا العربية

حول «مسئولية الاطباء»

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد على النجار
المدرس فى كلية العربية

كتب الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم القاضى بمحكمة المنيا الوطنية فى مجلة الأزهر[1] مقالا ممتعا فى « مسئولية الأطباء » عرض فيه للمسئولية ومرجعها فى القوانين الوضعية وفى الشريعة الإسلامية . والمقال يمتاز عن اطلاع واسع ، وألمعية وزكانة تتقاضى القارئ الإعجاب والثناء .

وقد بدا لى فى المقال تعقيبات أنشرها فيما يلى :

١ — يذكر الأستاذ فى ص ٨١٧ أن كتب الفقه الإسلامى لم تعرض بصورة واضحة للفرق فى المسئولية بين من حصل على شهادة دراسية لممارسة أعمال الطب ومن لم يحصل على هذه الشهادة . وهو يذكر بعد ذلك أن الفقهاء نصوا على أنه يحجر على المتطبب الجاهل ولا يمكّن من معالجة الناس . وأقول : ألا يكفى هذا فى إيضاح الفرق بين الصنفين : العالم بالطب ، والجاهل به ؟ ولا محالة أن مقياس العلم بالطب يختلف باختلاف العصور . وقد كان المقياس فى العصور الغابرة استفاضة إصابة الطبيب ، أو أن يشهد طبيبان من أهل الصناعة وذوى البصر بالطب لامرئ بأنه أهل لممارسة أعمال الطب . وأزيد هنا أن الأصل فى هذا التفريق قوله[2] صلى الله عليه وسلم : « من تطبب ولم يعرف الطب فهو ضامن » .

٢ — ويذكر الأستاذ أن قصر ممارسة أعمال الطب على من درسوا قواعده لم تعرف بطريقة رسمية فى الدول الإسلامية المختلفة . ويبدو أن هذا الحكم ليس على إطلاقه ؛ فإنا نرى فى كتاب « [3] إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطى أن الخليفة العباسى المقتدر أمر طبيبه سنان بن ثابت بن قرة الحرانى أن يمتحن

---

(١) جزء ذى القعدة ١٣٦٧ (٢) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه . وانظر حاشية الرملى على شرح الروض فى فروع الشافعية ج ٤ ص ١٦٦ (٣) ص ١٣٠ طبعة الخانجى .

مكتبتنا العربية

وزين لهم شيطانهم أن فى ذلك إطفاء لنور الله ، الذى آن له أن يشرق على الكون فيضيئه ، وبيّتوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فى ليلة معينة ، بطريقة معينة ، يتفرق بها دمه الطاهر فى القبائل ، فتحار قبيلته فى الثأر له ، لأنها لا تقوى على معاداة القبائل كلها ، إن هى شنّت الحرب عليها جميعا ، ولا هى تعرف أى قبيلة قتلت الرسول فتثأر له منها ؛ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أحيط بما اعتزمه المتآمرون ، إذ أطلعه الله على مكرهم ، وعلى الليلة التى حددوها لتنفيذ جرمهم . فقابل الرسول ذلك الفضل من الله بشكر عميق ، وإيمان كامل ، وقلب سليم ، لا ينفذ اليه فَرق ولا جـــزع ، ونفس مطمئنة مهيأة لابلغ رسالة ، حتى إذا التف المتآمرون بدار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وراحوا يتباهون بما انتووه ، ويتفاخرون بما عسى أن تضفيه عليهم قبائلهم من المدح والثناء ، لقاء شنيع صنعهم ، إذ بالرسول صلى الله عليه وسلم يخرج من داره ، فيغشيهم الله ، فلا يبصرون .

ويمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكانا قد تواعدا على اللقاء به ، بعد أن أذن الله لرسوله بالهجرة الى يثرب ؛ فرافقه الصديق فى يوم أبلج أغر ، ويصبح المتآمرون ويدخلون دار الرسول يبغون تنفيذ ما بيتوا النية عليه . فلا يجدون فى مضجعه إلا عليا كرم الله وجهه ، متشحا رداءه ، معرضا حياته فى سبيل صاحب الدعوة ، وحامل الرسالة ، فيقيه الله مكر الماكرين ، ويحفظ حياته وحياة الرسول الأمين ، ليتم نعمته على العالمين ..

وما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يخرج ليلا من مكة مع الصديق رضى الله عنه ، ميممين شطر الغار ، حتى أحاط الصديق بالرسول ، فيسبقه مرة ، ويمشى خلفه مرة ، ويسير عن يمينه تارة ، وعن يساره أخرى : فلما استوضحه الرسول جلية الأمر ، أجابه : أذكرُ الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . فلما بلغا الغار تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان من أمر المشركين أن تابعوا الرسول والصديق ، فلم يفوزوا بما أرادوا ، بل رجعوا على أعقابهم خاسئين ، وانقلبوا الى أهلهم خاسرين ، وأتم الله نعمته

مكتبتنا العربية

على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصل هو وصاحبه الى المدينة المنورة ، فخف المسلمون لاستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبّروا فرحا بقدومه ، وحيوه تحية النبوة . قال البراء : ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة . وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

هذا هو صدق إيمان الرسول ، ومضاء عزمه ، وقوة احتماله فى سبيل الدعوة الى الحق : وهذا هو وفاء صحبه ، وتفانيهم فى نصره . فاذا أحيينا نحن المسلمين ذكرى الهجرة المحمدية ، فإنما نتمثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى قوة إيمانه ، ونفاذ بصيرته ، ومبلغ وفائه فى سبيل نشر الدعوة لدين الله ، فقد مكن الله للمسلمين بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهجرتهم من مكة الى المدينة : فألّف بين قلوبهم ، فكانوا وحدة قوية متماسكة ، وجبهة متراصة ، أرعبت المشركين فى مكة ، وطوحت بأطماع اليهود فى يثرب ، ودخلت قبيلتا الأوس والخزرج فى دين الله ، فتآخوا ، واتحدت كلمتهم ، وزال ما كان بينهم من عداء سابق دام عشرات السنين ، وساهموا فى إعلاء الإسلام ، ونشر لوائه : ثم قضى المسلمون على الدس والغدر والفساد والكيد والخبث والنفاق ، وحاربوا اليهود وغلبوهم على أمرهم ، وأجلوهم من المدينة وما جاورها من القرى ، وتتابع الوحى الإلهى على الرسول الكريم صلوات الله عليه ، حتى شمل جميع مظاهر الحياة : من العبادات والمعاملات ، ومحاسن الأخلاق والآداب ، ونظام الأسرة والقضاء والمواريث ، والحروب والمعاهدات . وغير ذلك من كل ما يكفل للمسلمين - إذا هم عملوا به - حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة .

هذه خواطر تخطر فى النفس ، كلما جاءت الهجرة أو ذكرت : ولكنها اليوم تستدعى تأملا أعمق : فقد جاء عيد الهجرة والمؤمنون فى شرف الجهاد ضد الذين يريدون أن يخرجوهم من ديارهم ، ولكن الله منّ على المؤمنين فوحّد قلوبهم ، وجمع كلمتهم على مقاومة هذا العدوان ، وسيكتب لهم بإذنه تعالى النصر المؤزر ، والفوز المبين ، بفضل تآخيهم وتماسكهم : ومهما طالت المحنة فإن الله ناصر دينه ، معز لعباده المؤمنين : وليكن لنا أسوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد صبر حتى ظفر ، وجاهد حتى انتصر .

مكتبتنا العربية

إخوانى وأبنائى المسلمين :

إن دينكم حق كله ، وخيركله ، فاستمسكوا بعروته ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تفرقوا ، فإن يد الله مع الجماعة : وإن خير ما أوصيكم به فى هذه الذكرى المباركة أن تتقوا الله ، وتصلحوا ذات بينكم ، وتتبعوا كتابه ، وتعملوا بهديه : فإن الأمة الإسلامية عاشت عزيزة مهيبة ما تمسكت بكتاب الله ، وعملت بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولم يصبها الانحلال والضعف إلا حين تنكبت طريق الهداية ، وأعرضت عن سبيل الحق . هدانا الله وإياكم سواء السبيل .

اللهم فاطر السموات والأرض : تولنا بلطفك ، وامنحنا رضاك ، ووفقنا للاهتداء بهدى نبيك الكريم ، وأصلح أمرنا . اللهم انصر عبادك المجاهدين فى سبيلك ، وأمدهم بعونك ، وأيدهم بجندك ، واشمل بحمايتك ورعايتك ، صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروقا الأول . اللهم اشرح صدره ، ويسر أمره ، وآته سؤله ، وأنله ما يبتغيه للإسلام والعروبة من خير وعز وكرامة . اللهم أحيه حياة طيبه مباركة تعم بنعمها البلاد والعباد .

وإنى وإخوانى وأبنائى الأزهريين ، نرفع إلى مقام جلالته أسمى آيات الولاء والإخلاص والتهنئة ، والشكر : ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا العيد السعيد على جلالته باليمن والفتح المبين ، وأن يوفق رجال الحكومة إلى ما فيه الخير العميم . كما نبعث بتهنئتنا الخالصة إلى إخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بالعام الهجرى الجديد ، ضارعين إليه تعالى أن يعيده على المسلمين والعرب ، وقد ثبّت الله أقدامهم ، وحقق آمالهم ، وظفروا بالنصر المبين .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان : أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاى الملك العظيم ، صاحب الجلالة الملك فؤادا الأول . اللهم أجعله فى أعلى عليين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مكتبتنا العربية

بين معترك الفلسفات والانقلابات

لم تتوزع عقول البشر بين الفلسفات المختلفة ، والمذاهب المتعاكسة كما هى الحال فى هذا العصر . ومما يزيد الأمر خطرا أن هذا التوزع لم يقتصر على الجماعات المختلفة فتجتمع كل منها حول كلمة جامعة ، ولكنها تناولت الأفراد أيضا فأصبح بين طوائف الأمة الواحدة من الإحن والحزازات مثل ما بين الجماعات ، فترى فى الأمة الواحدة حروبا تشب نيرانها بين تلك الطوائف ، تدوم حينا ثم تهدأ لتعود الى تأججها تارة أخرى أشد ضراوة مما كانت .

لقد قام الاجتماع منذ أن خلق الله العالم الانسانى الى عهد غير بعيد ، على الربط الجامعة التى يقدسها أفراد كل هيئة ، كرابطة الدين ، ورابطة الوطنية ، ورابطة الجنس . ورابطة اللغة ، ورابطة التقاليد والعادات ، ورابطة الغايات والمثل العليا الخ ، فنيت كل هذه الربط فى العهد الأخير بالوهن : فعدت الفلسفة على رابطة الدين فحلت محلها المادية المحضة ، وسطت المنازعات الاقتصادية على رابطة الوطنية فأوهنتها ، حتى إنك لتجد المتمذهبين بمذاهب اقتصادية متطرفة يعطفون على من هم على شاكلتهم من أبناء الأمم المختلفة ، ضاربين صفحا عما بين تلك الأمم من خلافات سياسية ، ومنازعات اجتماعية . أما رُبط التقاليد والعادات والمثل العليا فقد ضعفت حتى لم يبق لها تأثير فى قلوب الأمم ، وحلت محلها اندفاعات هوائية لا ترتكز على شىء مما كانت تعبأ به الجماعات وتحرص عليه . فإذا تأملت فى مجموع الأمم من هذه الزاوية ، أيقنت أن الوحدات الاجتماعية فى حالة تحلل مستمر ، والفيت رُبطها فى دور تراخ تدريجى . ولكنك لو تأملت لتجد الكلمة الجامعة التى يجب أن تضوى هذه الجماعات تحت علمها ، لما اهتديت الى خيال منها . فهل سينتهى العالم على هذا النحو الى الفوضى المطلقة من كل مثل أعلى يرضى الجانب الروحى الذى لا تتجرد منه نفس بشرية ؟

يقول الغلاة من أهل السذاجة : نعم ، ويقول المفكرون الراسخون فى العلم : لا .

مكتبتنا العربية

وحجة الأولين أن هذه المنازعات القائمة بين طوائف الأمم ستنتهى بشيوع الإلحاد المطلق ، وبتداعى سلطان جميع الأصول الاجتماعية العتيقة ، وحلول أصول أخرى محلها تكوّنها المصالح الوقتية ، بعيدةً عن كل تأثير من عقيدة دينية أو نزعة حزبية .

وحجة الآخرين أن هذه المصادمات الواقعة بين طوائف الأمم ستفضى الى إضعافها واختلال نظمها ، وستريها رأى العين أن الحياة البشرية لا تقوم إلا على أسس من التقاليد المحترمة ، والنظم المقررة ، لا على النفسيات الثائرة ، والاندفاعات الجارفة ، والمذاهب المتطرفة . ولا تهذب تلك التقاليد والنظم إلا على سنة الترقى التدريجى ، قائمةً على الارتقاء الأدبى . والسمو الخلقى ، على النحو الذى نشأ عليه ما نحن فيه من رقى صورى ومعنوى ، حصلناه تدريجيا فى أجيال كثيرة متعاقبة ، لا ما فيه بعض الأمم اليوم من التناحر بين طوائفها . والتنازع بين عناصرها ، جريا وراء تحسين أجور ، أو وصول الى ولاية حكم . أو قلب نظام مجتمع رأسا على عقب ، فى العهد الذى فيه تتربص الأمم ببعض دوائر السوء ! مثلهم فى هذا كمثل أهل دار اشتط بينهم التنافس على توزيع الحجرات وتأثيثها ، وهى مهددة بالانهيار عليهم ، وهم يتصارعون فى داخلها !

نعم إن ارتقاء أدوات الحكم فى حياة الأمم كثيرا ما حفّزت إلى ثورات عنيفة ، وإراقة دماء غزيرة ، ولكن هذه القلاقل كانت بعيدة عن حوافظ الاجتماع ، ومعاقد الأخلاق ، وأصول الآداب المتفق عليها بين الناس كافة : وأما التى تشب فى هذه الأيام بين طوائف الأمم ، والتى لا تزال فى دور الاختمار ، فتتوجه إلى إسقاط الأصول الأولية للمعتقدات ، وإلى القواعد الأساسية للاجتماع ، وإلى الوطائد الفطرية للآداب ! وقد وجدت الدعايات القوية لدعاة هذه المذاهب مكانا فسيحا من أفئدة العامة ، وانضاف اليها بعض المتعلمين ، فتجد فى صميم كل أمة أوزاعا منهم يتقدون كل ما تقع عليه أعينهم من القيود ، ويتقمون على كل توجيه يصدر إليهم من المهيمنين على النظم الاجتماعية ، ويتمنون لو حان الوقت ، وسنحت لهم الفرص لتحطيم كل هذه التقاليد الإنسانية العامة ، ليتأدوا منها إلى الوجود السعيد ! وأى شىء هو الوجود السعيد ؟ هو أن يتناسوا من جميع التقاليد ، ويتحرروا من كل

مكتبتنا العربية

القيود ، زاعمين أنها تقاليد وقيود قررتها البشرية فى عهد جاهليتها من دين وأخلاق وآداب لم تملها عليها الحاجات الجسدية . ولا الضرورات الاجتماعية ، ولكن الخيالات الذهنية ، والخزعبلات الوهمية !

فلو انحلت أمة تحت تأثير هذه الدعايات والقلاقل ، استحال عليها أن تأتلف على أصل جامع غير ما يؤلف بين جماعات البهائم العجم ، وهى دون ما تتطلبه الحياة البشرية ، لأن لها فوق ما تشعر به من الحاجة الى المأكل والمأوى مطالب روحية وأدبية ، إن حبست عنها حطمت جميع ما تحاط به من الحواجز ، وبرزت ثائرة مناخة لا تستطيع أن تقفها أكبر قوة فى الأرض . وما ذلك إلا لأنها تستمد قوتها من صميم الروح البشرية ، وكل ما كان مصدره الروح فلا بد من تغلبه على جميع الحوائل المادية . فالدين والأخلاق والآداب ، وكل ما اشتق من هذه الينابيع الثلاثة ، مقومات طبيعية للحياة الإنسانية ، بدليل أنه لم تشاهد إنسانية مجردة منها .

نعم إن هذه المصادر العلوية قد يختلط فى ثمرتها - بسبب شوائب الطبيعة الجثمانية - الحق بالباطل ، والصالح بالفاسد ، ولكنها تتجرد من باطلها وفاسدها بتأثير ناموس الترقى على مدى الزمان ، كما هو مشاهد فى تاريخ الحياة البشرية فى أجيالها المتعاقبة . فما يحاوله مثيرو القلاقل من المعاصرين باسم الشؤون الاقتصادية ، والنظم الحكومية ، والطبقات الاجتماعية ، من حذف الدين وكل ما يقوم حائلا دون المرامى الأدبية والغايات المثالية للإنسانية ، مما بنوه على ضلالات الفلسفة المادية ، لا يعود على جماعاتهم إلا بالوبال . لا سيما وقد فاتهم أن الحكمة الدينية ، والمبادىء الأدبية ، والدوافع المثالية ذات التأثير الكبير فى النفوس ، هى العوامل التى تبعد بالإنسانية عن مستوى الحيوانية ، وترتفع بها الى أعلى ما تتجه اليه ميولها العلوية ، وأن تعطيل هذه العوامل يفضى بالإنسان الى ما هو أسفل من الحالة البهيمية : لأن الحياة الحيوانية مقودة بما طبعها الله عليه من الميول والمحاولات ، لا تستطيع عنها حولا ، خلافا للإنسان فإنه موكول الى إرادته واختياره ، فإن لم يحكم إرادته عقل ناضج ، وتتسلط على ميوله الشهوانية تكيمة أدبية قوية ، وتتحكم فى نزعاته عقيدة راسخة ، اندفع تحت تأثير رغباته وميوله اندفاعا جنونيا ينزله الى أسفل دركات البهيمية ، ولا يغنيه العلم ولا الفلسفة المادية فى هذا الدهور شيئاً . وهذا دليل محسوس على أن الميول

مكتبتنا العربية

الفطرية للتدين ، وللتعلق بعالم ما فوق الطبيعة والبحث فيه ، ولإحياء الغرائز الأدبية العليا فى النفوس ، هى ميول إلهية بثها الحق سبحانه وتعالى فى النفوس البشرية لترفعها عن حضيض الحيوانية إلى أرقى مراتب الحياة الإنسانية . وأمامنا صورة واضحة للفرق البعيد بين الأمم التى تأخذ بالدين والعلم معا ، وبين التى تصدف عن الدين وتأخذ بالعلم والفلسفة المادية . الأولى تمثل الأمة الإسلامية فى إبان نشأتها واشتغالها بنشر رسالتها ، والثانية تمثل الأمم الأوروبية فى حروبها الحديثة . كانت الأولى لا تقتل غير المحاربين ، وتحسن معامله المأسورين ، وتحترم حياة النساء والولدان والهرمى ورجال الدين وخدم المقاتلين ، ولا تهدم دورا ولا معابد ، ولا تحرق أشجارا ولا مزارع : وهؤلاء كانوا لا يفرقون بين المحاربين وغيرهم ، فكانوا يرسلون بطائراتهم تهدم الدور على رءوس أهلها الوادعين ، ويحرقون المدن التى يسكنها الملايين ، غير رامين إلا إلى تعجيز أعدائهم بكل الوسائل التى تخطر ببال الإخصائيين .

فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد فقد آذنت المدنية بالزوال ، وإنا اعتبرت القنابل الذرية من الأسلحة المشروعة فعلى العالم كله السلام !

أليس يبدو جليا من هذه المقارنة أن الدين وما يتصل به من فتوحات واكتشافات تؤيده وتحببه الى النفوس ، هو العامل الوحيد الذى يهذب الإنسانية ، ويرقى بها الى الأوج الأعلى من الكمال : وأن العلم الطبيعى والفلسفة المادية وإن أوصلا الإنسانية الى أرقى ما يتصوره العقل من الرقى المادى ، والإبداع الصورى ، فلا يوصلانه إلى كماله الأدبى ، ولا إلى سموه المعنوى ، فهو بحاجة ماسة إلى شكيمة تصده عن الاسترسال فى سوء استعمال سلطانه على العالم الأرضى .

فإذا بقيت الحال على ما هى عليه من ترقى العلم فى استكشاف الأسلحة الفتاكة ، وبقيت النفوس مجردة من العقائد الروحية الملطفة للوحشية البشرية ، فإن الحياة الانسانية تصبح مهددة بالفناء على أشنع حال : ولكن قيم الوجود سبحانه وتعالى قد أعد لهذا الأمر عدته ، فلن تمضى بضع عشرات من السنين حتى يدين العلم للدين الحق ، على شرط العلم نفسه ، أى بالدليل المحسوس .

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

البعوث فى الاسلام

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طه الساكت
مبعوث الأزهر إلى مكة المكرمة

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال: « بشّروا ولا تنفّروا ، ويسّروا ولا تعسّروا ».

وعن سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذا إلى اليمن فقال: « يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا ».

قلنا فى المقال الماضى : إن هذين الحديثين احتويا على ثلاث خصال بنى عليهن أمر الدين كله ، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر أمته بهن ، ولاسيما بعوثه ، ومن كان فى موضع القدوة من الأمة . وتكلمنا على الخصلة الأولى منهن وهى التيسير والتسهيل على الناس فى العلم والعمل ، والإرشاد والدعوة ، فى غير إفراط ولا تفريط . ولا نغلو إذا قلنا إن هذه الخصلة هى الأساس الأول للخصلتين الأخريين ، ولذا أشاعها النبى صلى الله عليه وسلم فى كل شأن ، وأكد طلبها فى كل أمر . وقال لأصحابه وهم خيرة أمته حينما ثاروا على الأعرابى الذى بال فى المسجد : « فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » [1] .

أما الخصلة الثانية فهى التبشير ـ ضد التنفير ـ وهو : تسكين الناس [2] وإخبارهم بالأخبار السارة التى يظهر أثرها على البشرة . والتبشير من أعظم الوسائل الى ترويح النفوس وإزالة همومها . والحيلولة بينها وبين القنوط واليأس . ولن تجد أعون للداعى بعد توفيق الله تعالى ، من بشارة طيبة ، يفتح بها آذانا صماً وأعينا عميا وقلوبا غلفا . وكم من نفوس كانت مستعدة للهدى والخير لولا أن ابتليت بأناس منفرين ، يقنّطون الناس من رحمة الله ، ويبعدونهم من فضله ورضاه : أولئك الذين يجسمون الصغائر ، ويكفرون بالكبائر ، ويشتدون فى الأمر والنهى ، كأنهم حراس على أبواب الجنة ، لا يدخلها أحد إلا أن يفتحوا له ، أو كأن مفاتيح الرحمة بأيديهم فلا تنال أحدا إلا أن يرضوا عنه : وكأنهم نسُوا أو تناسوا أن رحمة الله غلبت

---

(١) وتقدمت قصته فى المقال السابق .

(٢) فى احدى الروايات المتفق عليها « سكنوا » بدل « بشروا » فلذا فسرنا التبشير بالتسكين .

مكتبتنا العربية

غضبه ، وأنها وسعت كل شيء ، وأن من أسرف على نفسه حتى ملأ الأرض خطايا ثم لقى الله تائبا لا يشرك به شيئا ، لقيه الله بالمغفرة : ومهما يكن من أمر المسرفين فإن عفو الله أعظم من جرمهم ، ورحمته أوسع من ذنبهم ، ولا ييئس عبد من روح الله وفى قلبه ذرة من إيمان ، إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وليس المراد أن يقتصر الداعى على التبشير ، دون أن يقرنه بالإنذار إذا دعت الحاجة إليه : بل لابد منهما جميعا ، وإن كان لكل مقام ما يناسبه : وقد بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . ولولا البشارة لأهلك الناس اليأس والقنوط : ولولا النذارة لأهلكهم الغى والغرور : فكلاهما سلاح لا غنى عنه ، وطب لا بد منه : ومن أجل ذلك لم ينه النبى صلى الله عليه وسلم عن الإنذار وإن كان كذلك خلاف التبشير . على أنه من اليسير على من دعا الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ألا يكون فى إنذاره غليظا مفظعا ، اللهم إلا إن دعت الى ذلك ضرورة لا محيص عنها : وآخر الدواء الكى ! !

وهنا أمر يجدر بنا أن ننبه عليه : وهو أن كثيرا ممن يتصدون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، وبالغوى فى التبشير والإنذار ، فيسوون النوافل بالفرائض ، والصغائر بالكبائر ، ويذكرون لأقل الأعمال أعظم الجزاء ، معتمدين فى شططهم هذا على أكاذيب مسطورة ، وأحاديث موضوعة لا سند لها من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وحق على الولاة أن يأخذوا على أيدى هؤلاء ، ويحولوا بينهم وبين الدعوة ، فإنهم يفسدون أكثر مما يصلحون ، إلا أن يتوبوا إلى الله سبحانه ويتعلموا شرائط الدعوة ومنهجها ، ويقتدوا بالأئمة والسلف ، وتكون لهم بصير نيرة تهديهم سواء السبيل . وفى كتاب الله عز وجل وما صح عن رسوله صلوات الله عليه غنى وكفاية . على أن فى هذا الصحيح ما تعجز النفوس الضعيفة عن حمله وفهمه (١) : فليكن الحديث فيه بمقدار ، مع إحاطته بالإيضاح والحكمة ، والتمهيد له بالإعداد والإيقاظ . وفى مثل هذا يقول سيدنا على رضى الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون : أتحبون أن يكذب الله ورسوله » ! وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت محدثاً قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ! .

---

(١) كغرائب الأحاديث ، وأحاديث الصفات ونحوها .

مكتبتنا العربية

وأما الخصلة الثالثة فهى التطاوع والتوافق ، ضد التخالف والتنازع . وفى التوافق قوة وألفة ، وفى التخالف والتنازع ضعف ونفرة . وقد كان المسلمون سادة العالم وملوك الدنيا وخلفاء الله فى الأرض ، إلى أن دب فيهم دبيب الخلاف والتفرق ، فبُدلوا من بعد أمنهم خوفا ، ومن بعد قوتهم ضعفاً ، ومن بعد عزهم ذلا ، ولولا أن الدين عند الله هو الإسلام لما كان لسلطانهم فى الوجود ظل ، ولا لشأنهم فى الأمم ذكر .

كان العرب فى الجاهلية أمما متفرقة ، وأحزابا متقطعة ، وأقواما متناحرين متنافرين ، لا كلمة تجمعهم ، ولا رابطة تربطهم ؛ حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فجمعهم تحت لواء التوحيد ورايه الإسلام ، وألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ! . . . ولم يزالوا متمتعين بنعمة الوحدة والأخوة ، حتى فرقتهم الأهواء والمطامع ، وعضوا بنان الندم ، ولات ساعة مندم !.

على أن فيما شرع الله لهم من هذه الفرائض حوافز عملية تناديهم بالوحدة وتدعوهم إلى الوفاق والألفة ، وتهيب بهم فى كل فرصة أن ارجعوا إلى دينكم واستاروا بسيرة الصالحين من أسلافكم ، تعزوا وتسعدوا ، وتظفروا وتفلحوا ، وتكونوا كما كنتم من قبل خلفاء الله فى الأرض .

تلك هى الخصال الثلاث التى كان يوصى بها النبى صلى الله عليه وسلم بعوثه ، وهى كما ترى سبيل السعادة لمن استمسك بها ، واهتدى بهديها .

هذا ، وقد كان بعثه صلوات الله وسلامه عليه معاذا وأبا موسى إلى اليمن سنة عشر قبل حجة الوداع ؛ وقيل سنة تسع عند منصرفه من تبوك ؛ وقيل سنة ثمان عام الفتح . وأياما كان الأمر فقد بعثا بعد أن علا شأن الإسلام ، وبدد نوره سحب الظلام ، وكانت اليمن إذ ذاك مخلافين [1] فكان معاذ والياً على النجود وما تعالى من البلاد ، وكان أبو موسى والياً على التهائم وما انخفض منها . ومع بعد الشقة بينهما فكانا يتزاوران ويتعاونان ، ويسأل كل منهما صاحبه عن عمله وعبادته ليتنافسا فى الخير ويتسابقا إليه : وكانا يتناصحان ويتشاوران ، فإذا تنازعا فى شىء ردوه إلى الله ورسوله : فيتوافقان ويتطاوعان . وجملة القول أنهما كانا قدوة صالحة لمن دعا إلى الله على بصيرة وهدى .

(١) المخلاف والكورة والاقليم : واحد .

مكتبتنا العربية

تحويل القبلة

من بيت المقدس الى الكعبة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس فى كلية أصول الدين

قال الله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره : وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » .

من الفيوضات الإلهية ما جمّل الله به الإنسان من جمال الصورة ، وما ركّن فيه من المواهب السامية ، لا سيما هبة العقل .

أكرمه بذلك من بين خلقه ، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

إنها وأيم الحق هبات جليلة ، لا تكون إلا من صنع مدبر حكيم ، ومن نسج عليم خبير ، يجب بإزائها أن يخرّ بنو آدم إلى الأذقان سجدا ، وأن يؤدوا واجب الطاعة مطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد طرفهم عن التوجه إلى جنابه الأقدس ، اعترافا بفضل مسديها ، وإذعانا لأمر مهديها . لذلك كان تكليف الصلاة أمراً لازماً فى دين جميع الأنبياء ؛ قال الله تعالى « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكياً » .

ولما كانت فطر المكلفين المعتمدين استحالة الجهة على الله تعالى تقتضى عدم التوجه إلى جهة مخصوصة فى الصلاة ، أمرهم على خلاف ما تقتضيه فطرهم ، اختباراً

مكتبتنا العربية

لهم وابتلاء ، ليتميز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصى ؛ كما ابتلى الملائكة بالسجود لآدم حيث جعله قبلة لسجودهم .

وإنك لتعلم أن المقصد الأسمى من الصلاة حضور القلب وكمال الخشوع ، واستحضار عظمة الله ، حتى كأنه يراه فيمتلىء قلبه هيبة من جلاله ، ويفنى ظله أمام تجلياته ، ويذهب شبح الدنيا ومغرياتها بمشاهدة أنواره ؛ وإن ذلك لمقام الخائفين ، ووسام المحسنين . فالصلاة صلة بين العبد وربه ، تنهاه عن الفحشاء والمنكر متى أداها على وجه الإحسان الذى يتوّجه بأحد التاجين : تاج المشاهدة والمراقبة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ومن هنا يخلق بك أن تلمس بيدك السر فى أن بعض المصلين لم تنههم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، وقد قال الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وذلك لأنها صلاة عارية من الروح المطلوبة ، ومن الحكمة التى من أجلها شرعت .

وإن ألطف ذريعة وأقوى وسيلة ليذل القلب ويخضع ، ويلاحظ جلال الله وعظمته ، هو استقبال جهة معينة فى الصلاة . واذا ما اختصت جهة بمزيد شرف كانت أولى ، وإن أشرف بقعة بين أديم الأرض ، وأطهر مكان يكون قبلة يتوجه اليها فى الصلاة : هى الكعبة : قال الله تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا » . وليس هناك من بيت يشترك فيه جميع الناس إلا اذا كان موضوعا للطاعات والعبادات ، لأن سائر البيوت كل واحد منها مختص بواحد .

شرّف الله هذا البيت بتخطيط الملائكة له ، ووضع رسمه ، وأوحى الى أبى البشر آدم ببنائه ، فوضع أساسه على أبعد عمق من الأرض ، ومن أعظم الصخور حجما وصلابة ، فتفنى الأجيال ولا يفنى ، وتنهار الراسيات ويبقى . وكان آدم يحج اليه وأولاده جيلا بعد جيل الى أن كان طوفان نوح عليه السلام . وبعد أن غاض ماء الطوفان صار ربوة يعرف حرمتها ومزيد شرفها المصطفون الأخيار تطوف ، حولها الملائكة ، وتعبد الله عندها .

مكتبتنا العربية

استمر الحال على ذلك ، والعام يتلو العام ، والقرون تمر ، حتى جاء عصر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وبعثه الله تعالى وأمره بعمارة هذا البيت : قال الله تعالى : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » « وعهدنا الى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » . ولذلك قيل ليس فى العالم بناء أشرف من الكعبة . فالآمر هو الملك الجليل ، والمهندس جبريل ، والبانى هو الخليل .

وإن بيتا حفّته عناية الله فتقال فيه العثرات ، وتجاب فيه الدعوات ، ونوه الله بشأنه فى محكم كتابه بقوله « ومن يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . لجدير بأن يكون الإنسان عند استقباله فى صلاته أشد تعظيما وخشوعا ، وأكثر استحضارا وأعلى مقاما . لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون الكعبة قبلة المسلمين ، بعدأن حازوا شرف التوجه إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا ، ليكونوا من أهل القبلتين ، وليتميزوا عن المشركين قبل الهجرة . وعن اليهود بعدها . فتطلع الرسول صلوات الله عليه وهو بالمدينة بعد الهجرة ، واشتد تشوقا وكلفا إلى نزول الوحى عليه بالتوجه إلى بيت الله الحرام ، وقد كان يتوقع ذلك من ربه ، لأن الكعبة أقدم القبلتين ، ولأنها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، ومفخرة العرب ، حيث كانت مثابة للناس وأمنا ؛ ومزارا ومطافا ، وذلك أدعى إلى دخول العرب فى الإسلام . فنزل قول الله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » الآية . وذلك بعد سبعة عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة ، وقبل وقعة بدر بشهرين .

والآن نعرض لتفسير هذه الآية ، فنقول :

هذه الآية الكريمة وإن تأخرت فى ترتيب التلاوة . ولكنها متقدمة معنى ، على ما حكاه بعض العلماء أنها متقدمة فى النزول على قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » لأنها رأس القصة .

يقول الله تعالى : قد شاهدنا وعلمنا تردد وجهك ، وتسريح نظرك الى جهة السماء ، تطلعا الى نزول الوحى عليك ، وتوقعا لما ألق فى روعك من تحويل القبلة الى الكعبة ، سعيا منك وراء استمالة العرب الى دخولهم فى أحضان الإسلام

مكتبتنا العربية

وكنفه ، ومخالفة لليهود الذين كانوا يقولون إنه يخالفنا فى ديننا ثم إنه يتبع قبلتنا ، حتى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل « وددت أن الله صرفنى عن قبلة اليهود الى غيرها » فقال له جبريل : « أنا عبد مثلك ، وأنت كريم على ربك ، فادع ربك وسله » .

ثم ارتفع جبريل ، وجعل الرسول يديم النظر الى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذى سأل ربه .

أقسم الله ليكونن عند ما سأل ، وليجيبنه الى ماطلب ، فوعده بقوله « فلنولينك قبلة ترضاها » أى لنعطينك ما اشرأب اليه عنقك وأشرب حبه فى قلبك ، من استقبالك الكعبة . أو فلنجعلنك تلى سمتها . والأول من قولك وليته كذا إذا صيرته واليا له ، والثانى من قولك أوليته إياه أدنيته منه . وما قصد الرسول ذلك وأحبه عن سخط فى التولى الى بيت المقدس ومجرد هوى النفس ، والشهوة الطبيعية فى التولى الى الكعبة : وإنما ذلك كان منه عليه السلام لمقاصد دينية ، وأغراض سامية ، وافقت مشيئة الله تعالى ، فأروى غلته ، وأدخل عليه السرور والابتهاج بهذا الوعد . ألا وإن وعد الله محتوم الوفاء : لذلك تجد الإنجاز بما وعد جاء مرتبا عليه ومفرعا فأمر بالتولية الى الكعبة بقوله « فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

الشطر له محامل : والمراد به هنا الناحية والجهة . والمتبادر من لفظ المسجد الحرام : المسجد الذى فيه الكعبة . والحرام : المحرم فيه القتال ، أو الممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له .

يأمر الله تعالى نبيه عليه السلام ، وأمره أمر له ولأمته أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه ببدنه الى ناحيتها ووجهتها حال تأديته الصلاة لربه ، سواء أكانت فرضا أم نفلا ، وسواء أكان المصلى بالمدينة أو بمكة أو بأى مكان وجد فيه . وفى التعبير بالوجه ما يشير الى أنه المعيار والأصل فى التوجه . وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ما يؤذن بكفاية مراعاة جهة الكعبة . وإن ذلك لمبلغ اللطف بعباده والتيسير عليهم ، لأن البعيد عن مكة يتعذر عليه إصابة عين الكعبة « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » و « إن الدين يسر لا عسر » ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبلة كل أفق ، وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ، ومن غاب عنها عليه أن يستقبل جهتها ، فإن خفيت عليه فيستدل على جهتها بكل وسيلة تهديه إليها .

« يتبع »

مكتبتنا العربية

دعائم الاستقرار
فى التشريع القرآنى

تتمة البحث

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

وأما مجيء التكاليف فى حدود الاستطاعة البشرية ، وهو ما يعبر عنه أهل الشرع ، بنفى الحرج ، فهو أصل من الأصول المقطوع بها ، ولا خلاف عليه بين علماء الشريعة ، ويدل عليه فى القرآن الكريم آيات : منها قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » ، « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

وقد علمنا الله جل علاه أن ندعوه بقوله « ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به » .

وقد سرى هذا المبدأ من الكتاب الكريم إلى السنة المطهرة ، وطبق الله عليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : فهو يقول « بعثت بالحنيفية السمحة » ويروى الرواة فى شمائله عليه الصلاة والسلام أنه ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما » ، وقد سئل عن الحج : أفى كل عام ؟ فقال : « لو قلت نعم لوجبت . ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم

مكتبتنا العربية

واختلافهم على أنبيائهم » . وروى عنه أنه قال « أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سئل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم من أجل مسألته » وأنه قال : « إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

الى غير ذلك مما يدل على أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، قد تأثر أعظم التأثر بمنهج التشريع القرآنى فيما أمر به أو بينه أو ركن إليه ، وفى بيان هذا الأصل وغيره يقول ابن القيم « إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجـــور ، وعن الرحمة إلى ضدها . وعن المصلحة الى المفسدة ، وعن الحكمة الى العبث ؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه [1] » .

ويقول أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه الموافقات [2] « إن وضع هذه الشريعة المباركة حنيفة سمحة سهلة ، حفظ فيها على الخلق قلوبهم ، وحببها لهم بذلك ، فلو عوملوا على خلاف السماح والسهولة ، لدخل عليهم فيما كلفوا به ما لا تخلص به أعمالهم ؛ ألا ترى الى قوله تعالى: « واعلموا أن فيكم رسولَ الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » .

فقد أخبرت الآية أن الله حبب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله ، وزينه فى قلوبنا بذلك ، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه ، وفى الحـــديث « عليكم من الأعمال ما تطيقون : فإن الله لا يمل حتى تملّوا » .

والأمثلة الدالة على رعاية هذا الأصل فى التشريع القرآنى كثيرة مشهورة .

منها : أن الله شرع الصيام ورخّص فى الفطر للمسافرين والمرضى : « ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

---

[1] إعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٧ . [2] ج ٢ ص ١٣٦

مكتبتنا العربية

ومنها : أنه كلفنا بالوضوء والغسل من الجنابة ، وشرع التيمم عند فقد الماء أو عدم القدرة عليه « ... فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

ومنها : أنه أمر الأزواج بأن يمتّعوا زوجاتهم « على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف » ورسم فى شئون الوالدات نهجا لا ضرر فيه ولا ضرار « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده » .

ومنها : أنه حرم أشياء فى حال السعة ، وأباحها فى حال الضرورة « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » .

ومنها : أنه يعطى الطبائع حقها ، ولا يلزم بما ينافرها ؛ فالطيبات مباحة ، وزينة الله التى أخرج لعباده مباحة ، والرهبانية ممنوعة ، واعتزال النساء فى المحيض واجب ، والرفث إلى النساء ليلة الصيام حلال ، والرجال قوامون على النساء ، وللذكر مثل حظ الأنثيين ، ومواعدة المطلقة بالزواج أثناء العدة محرمة ، والجمع بين الأختين ممنوع ، وحرام على الرجال التزوج من الأم أو الأخت أو العمة أو الخالة أو البنت أو أية قريبة بالنسب أو الرضاع فى الزواج منها امتهان لها ، وحرام على الرجال زواج الإماء إلا فى حال الضرورة ، والرهن مشروع ، والمعسر منظر ، وهكذا ...

وقد انبنى على هذا الأصل الذى جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة كثير من الفروع الفقهية ، « فالسلطان أحق بالإمامة ، وصاحب البيت أحق بالإمامة ، والذى ينكح امرأة جديدة يجعل لها سبعا أو ثلاثا ثم يقسم بين أزواجه ، وإمامة العبد والأعرابى ومجهول النسب مكروهة ، والتغنى بالقرآن مستحب ، وحسن الصوت بالأذان مستحب ، وتطييب المساجد وتنظيفها سنة ، والاغتسال يوم الجمعة والتطيب فيه سنة »[1] ... الخ .

---

[1] حجة الله البالغة ج ١ ص ٤١١ .

مكتبتنا العربية

وقد ينقلب الواجب الحتم حراما ويمنع الناس منه إذا ترتب على فعله حرج أو أذى أو فتنة : ومن ذلك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان ، ولكن إذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر ، وفتنة إلى آخر الدهر . وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : لا ، ما أقاموا الصلاة ، وقال : من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته . ومن تأمل ما جرى على الإسلام فى الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته ، فتولد منه ما هو أكبر منه : فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام ، عزم على تغيير البيت ورده إلى قواعد إبراهيم ، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه وعدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام ، وكونهم حديثى عهد بكفر : ولهذا لم يأذن فى الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه .

فإنكار المنكر أربع درجات : (الأولى) أن يزول ويخلفه ضده . (الثانية) أن يقل وإن لم يزل بجملته . (الثالثة) أن يخلفه ما هو مثله . (الرابعة) أن يخلفه ما هو شر منه . فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة . فاذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه الى ما هو أحب إلى الله ورسوله ، كرمى النشاب ، وسباق الخيل ونحو ذلك . وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية ، فإن نقلتهم عنه الى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فمكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك . وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها ، وخفت من نقله عنها انتقاله الى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى . وروى عن ابن تيمية أنه قال : « مررت أنا وبعض أصحابى فى زمن

مكتبتنا العربية

التتار يقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم ، فقالت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم » [1]

من هذا يتبين أن التكاليف كما روعيت فيها طاقة الفرد فى الواجبات العينية وأمثالها ، لوحظت فيها أيضا طاقة المجتمع فى الواجبات الكفائية وأمثالها : فلو كان الأمر بإزالة المنكر باقيا فى الحالات التى تقدم ذكرها ، لوقع المجتمع منه فى شر عظيم ، ولاحتمل منه ما لا طاقة له باحتماله : ولكن الشرع لم يكتف حينئذ بإسقاط الواجب رحمة بالعباد ، وتخفيفا عنهم ، وإنما منعهم من القيام به كراهية أن يقعوا فى حرج أشد ، فهى رحمة مما هو محتمل الوقوع من الحرج ولو ظنا .

وينبغى أن يعلم أن الشارع لم يقصد إلى إلغاء كل نوع من أنواع المشاق ، فإن المشقة إذا لم تكن خارجة عن المعتاد ، وإنما وقعت على ما تقع المشقة فى مثلها من الأعمال العادية ، فإن الشارع لا يقصد رفعها ، وفى ذلك يقول القرافى فى كتابه الفروق « إن المشاق قسمان : أحدهما لا تنفك عنه العبادة كالوضوء والغسل فى البرد ، والصوم فى النهار الطويل ، والمخاطرة بالنفس فى الجهاد ونحو ذلك ، فهذا القسم لا يوجب تخفيفا فى العبادة لأنه قرر معها : وثانيهما : المشاق التى تنفك عنها العبادة ، وهى ثلاثة أنواع : نوع فى الرتبة العليا كالخوف على النفوس والأعضاء والمنافع فيوجب التخفيف ، لأن حفظ هذه الأمور هو سبب فى مصالح الدنيا والآخرة ؛ فلو حصلنا هذه العبادة لثوابها لذهب أمثال هذه العبادة . ونوع فى المرتبة الدنيا كأدنى وجع فى إصبع ، فتحصيل هذه العبادة أولى من درء هذه المشقة لشرف العبادة وخفة المشقة . والنوع الثالث : مشقة بين هذين النوعين ، فما قرب من العليا أوجب التخفيف ، وما قرب من الدنيا لم يوجبه ، وما توسط يختلف فيه لتجاذب الطرفين له » [2] .

ومن هذا يتبين معنى قولهم « إذا ضاق الأمر اتسع » و « المشقة توجب التيسير » و « الضرورات تبيح المحظورات » . ونفهم لماذا تسقط النذور إذا

---

(١) إعلام الموقعين جـ ٣ ص ٢٨ (٢) الفروق ج ١ ص ١١٨ .

مكتبتنا العربية

صادمت أمرا ضرورياً أو حاجيا فى الدين ، كمن نذر المشى الى مكة فلم يستطع ، أو نذر ألا يتزوج ، أو لا يأكل الطعام ، أو نحو ذلك .

ولقد يعيب بعض المتشدقين أنواعا من العقوبات جاءت بها الشريعة كالحدود والقصاص ، ويقولون إنها تكاليف شاقة ، فإن قطع يد السارق ، ورجم الزانى أو جلده ، والقصاص من سن بسن ، ومن عين بعين ، ومن نفس بنفس ، أحكام شاقة على العباد تتنافى مع الرحمة ، وتشبه أحكام الأمم المتأخرة المتوحشة ، ولا تليق بأمة متمدينة .

وقد غاب عن هؤلاء أن هذا هو الطريق العملى الوحيد الذى به يبرأ المجتمع من أمثال هذه الجرائم : فمثله كمثل الدواء المر البشع الذى يتوقف عليه شفاء المريض من مرضه ، فليست الرحمة فى أن تترك المريض بدائه حتى يقضى عليه ، رفقا به من أن يتجرع الدواء ؛ ولكن الرحمة هى أن تجرعه هذا الدواء ليحيا ويبقى فى سلامة وعافية : وكما لا يقال إن الطبيب بوضعه الدواء قد أساء الى المريض ، لا يقال إن الشارع بوضعه هذه العقوبات قد أساء الى المجتمع أو شق عليه ؛ فإن الشارع هو الطبيب الأعظم ، فهو يصف الدواء عالما بما فيه من مرارة ، ولكنه يعلم الى جانب ذلك ما فيه من فائدة ، ويوازن بين الألم الوقتى والراحة الطويلة ، فيختار أنفعهما لمن يحبه . وشبيه بهذا ما روى فى الحديث القدسى « ما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن : يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له من الموت » .

قال الشاطبى « لأن الموت لما كان حتما على المؤمن ، وطريقا الى وصوله الى ربه ، وتمتعه بقربه فى دار القرار ، صار فى القصد اليه معتبرا » .

بهذا كله يتبين أن التشريع القرآنى الذى انبنى عليه التشريع الإسلامى ، قائم على الدعائم الضرورية التى لا يستقر تشريع إلا عليها ، وأنه مناسب للطبيعة البشرية غير منافر لها « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

مكتبتنا العربية

شعراء الازهر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

ابراهيم محمد السيد نجا

ولد فى بلدة دمنهور البحيرة ، فى ١١ من فبراير سنة ١٩١٨ ، وتخرج فى كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ؛ واشتغل بالتدريس فى مدارس وزارة المعارف ؛ فهو - حرس الله شبابه وأمتع به - فى غرة ربيع حياته

عرفته - لأول مرة - فى الفرقة النهائية فى الكلية ، ولفتنى إليه هدوءه وحياءه بالغان ، ونظرات نوافذ يسددها حينا بعد حين فتفرطس الهدف ، وتسرق النظر ؛ وقدمه إلىّ إخوانه فقالوا : شاعر : قلت : وإن مخايله لمخايل الشاعر ، وإن لم يكنه اليوم فسيكونه غدا : ثم استنشدته ، فاستحيا ، واعتذر ، ووعد ثم مطل ؛ وفجأته يوما ، وقد أطرق وأطال الإطراق : فيم تفكر أيها الشاعر ؟ لعل طيف فلانة - وذكرت اسما - شاقك ، فحاولت النوم لتصيّده ؛ فذعر ، واحمر ، وقال : « والنبي أنت تعرفها ياسى الشيخ ؟ ! » وكانت عاصفة من الضحك لم أتيقن بعدها : أكان الضحك منه لأنى خدعته ، فى فترة ذهول خيالى لم يتحقق معه ما قلته ؛ أم كان الضحك منى أنا لأنه « قفش لى » قفشة شاعر ؟ ! .

* * *

وشعرُ هذا الشاب ، مِزاجٌ من نسمات الفجر ، و نفحات الزّهر ، ونشوات الخمر ، ونفثات السّحر ! وهل لهؤلاء جميعا من الأثر ، ما يفعل بالألباب مثلُ قوله [1] :

---

(١) مجلة الكاتب المصرى ، عدد مارس سنة ١٩٤٧

مكتبتنا العربية

أنا طيفٌ يقطع الأيام حَيْرانَ شقِيّا
أستُر الحُزْنَ وأُخفى دمعَ عَيْنِى بِيَدَيّا
وشُعاعُ الشمْس يُؤذينى ويُغشى مُقْلَتَيّا
ليتنى ما كنت طيفا ، ليتنى ما كنت حَيّا !

* * *

أنا قيثارةُ أنْغامٍ فمَالى لا أغنّى ! ؟
عبثَ اليأْس بِأوتارِى وأنْغامِى وفَنّى
أيها اليأْس ، ألا تذْهَب بالأحْزانِ عَنّى ؟
إنّنِى ألقيْتُ آمالى ، فخذها . . . ثمّ دَعْنِى !

* * *

لا ، لا ـ يا بنى ـ لا تيئس ، فإنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس : وغنّ ورَجِّعْ ، ثم غنّ ورجّع ، فأنك بلبلٌ غرِد أظلته بواكير الربيع ! وإن الذى لا يشجيه غَرَدُك يابرهيم — لاصم : وإنك حين تناجى اليأس ، وتعرض عليه أحزانك ، وآمالك ، ليأخذهما معا ، ويدعك وحدك ، غير جاد ؛ ومن أنت ، وما أنت إذا مضت عنك الآمال والآلام ؟ لا شىء ! ولو أنك ـ يابنى ـ حَدَدْتَ من طموحك الأشمى ، الذى أنطقك بقولك :

أنا رُوح هائم بَيْنَ عُيُونٍ وَنُهُودِ
حالمٌ بالنشوة الكبرى من الحب الفريد
إنها إشْرَاقة العمر وإشْعاعُ الوجود
ليتها تحرق روحى ، ثم أحْيَا مِنْ جديد !

أجل : لولا هيامك بين العيون والنهود ، مفتشاً ـ ياخبيث ـ عن حبيب فريد ، كأنك فى سوق الرقيق ، تنشد جارية تصطفيها على عينك ، لاستبدلت الطرب بالحزن ، والرجاء باليأس ، ولوقعت أنغامك على قيثار المنى والشباب والأمل الباسم ، لا على قيثار اليأس ، وزفرات الأنين ؛ والحب ـ يابنى ـ لا يفتش عنه ،

مكتبتنا العربية

ولكنه يأتى مصادفة واتفاقا ، فأنت لست يائسا ، ولكنك جوعان العاطفة ؛ أشبع الله قلبك ، وأقر جوانحك ! . . .

* * *

وشاعرنا الشاب ، يلتقى بالشاعر الكبير ، الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، ويجرى معه فى عِنان ، ويُلز معه فى قران . ولا ريب أن الذى يقرأ قوله فى هذه القصيدة :

أنا لحنٌ والهُ الأنات مشبوبُ البكاء
جاء من قيثارة الله إلى هذا الفضاء
هو فى الفجر حنينٌ ، وأنينٌ فى المساء
ليتنى عدت لقيثارك يارب السماء !

أقول : إنّ الذى يقرأ هذا غفلا من نسبته الى صاحبه ، يتبادر الى ذهنه أنه للأستاذ محمود اسماعيل ؛ وهو خيال غير شرقى ، وغير مقبول .

وأقل غرابة من هذا : « عناق الظل والنور » فى قوله [1] :

حياتى كلها حلم بأفق غير منظور
تُذيع طيورُه سحرا عناق الظل والنور
نعيش به كما نهوى مع الأملاك والحور
يَزُفّ الحبُّ ساحرةً إلى أحضان مسحور !

ومن خياله الرائع المألوف فى هذه القصيدة ، قوله :

أنا المحروم لكنى أغذّى بالخيال دمى
ظمئت ولم أجد ماءً فهام إلى السراب فمى
وغنّيتُ الجمال ، فلم أجد إلا صدَى نغمى
فغنّى اليأسُ فى قلبى على قيثارة الألم

* * *

(١) من قصيدة « الرسالة الأولى » نشرت فى مجلة الرسالة عدد ٧٣٤ .

مكتبتنا العربية

أنا الحيران فى الدنيا كطير ضلّ عن فنَنِهْ
يَهِيْجُ الفجرُ صبوتَه ويذكى الليل من شجَنِه
هبِيْهِ عُشُكِ الحانى ترُدْيهِ إلى وطنه
ويكفيك الذى لاقى من الحرمان فى زمنه

ومثله قوله من قصيدة أخرى (١) :

مَنْ لبَاكٍ ليس يَرْقا دمعُهُ ومُحِبٍّ ضَيَّعَ العمرَ انتظارا
طالما حَنَّ الى الماضى الذى غاب خلف الأفق عنه وتوارى
آه - يا قلبى - كفانا حسرةً وكفانا - أيها القلب - عثارا
طُوِىَ الماضى ، فيا قلب اتّئِدْ عَبَثًا تَطْلُبُ للماضى انتشارا
لم يَعُدْ ماضيك إلا ذِكرًا فاْحىَ فى الماضى حنينا وادكارا

وهى قصيدة تذكرنا بأنفاس ميلان الرقيقة .

بيد أن شاعرنا أنجح أسلوبا ، وأطبع خيالا ، من شاعر الخيال البكر الأستاذ محمود اسماعيل ، فى الأعم الأغلب ، وإن جمعتهما مشابهُ كثيرة فى المذهب الشعرى . والعيب الذى آخذه على « نجا » شاعرنا ، أنه يكثر من نظم القصائد ذوات القوافى المتعددة ، وهو عندى ضعف ، أو - بالحرى - سمة من سمات عجز الشاعر ، عن نظم القصائد ذوات وحدة القوافى ، مهما قام له من المعاذير : وتعويد للنفس أن ترضى بأيسر الحظين ، وهو ليس من طِباع الفحول .

وقد عالج شاعرنا الموشح : وأجاد فى « وشحة » الرسالة الرابعة ، التى منها (٢) :

لا تسأليني إذ نكون معا هنالك فى خميلهْ
فترينني مستغرقا فى الفكر آونة طويلهْ :
« ماسرّ هذا الفكر ، ما تلك الخيالات الجميلهْ ؟ »
إنّ - وحبّك - لست أدرك سرّه حتى أقوله
إنّى على رغمى أفكر ، ليس لى فى الفكر حيلهْ

---

(١) من قصيدة « إليها . . . » نشرت فى مجلة الرسالة عدد ٧٢٥ .

(٢) مجلة الرسالة عدد ٧٦٥ .

مكتبتنا العربية

أنا زورق فى لجـــة الأفكار لا يدرى سبيلَه
حَيْرانَ يَبْحثُ دُوْنَ ما جَدْوَى عن الشَّطِّ الأمينِ
فبحق ما بينى وبينك من هـوًى ، لا تسأليني

* * *

لا تسأليني : « هل تُراك تقول هـذا الشعر عنى ؟
أتُرَاكَ ترفعه إلىَّ ، وتستمدّ الوَحْىَ منى ؟ » .
إنى من الغيد المـــلاح الفاتنات أخـذتُ فنّ
من كلّ فارعة القوام ، وكل بارعـــة التثنّى
إن حدثت ، فحديثها فى الروح لحن أىّ لحن !
وإذا بدت ، فكأنها ، فجر الربيع بدا يغنّى !
يا مُنْيَتى أنا بلبـــل يشدو على كل الغصونِ
فبحق ما بينى وبينك من هـــوى لا تسأليني

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ومنها :

لا تحرجينى بالسؤال ، فقد يحيّرنى الجواب
ما كل معنى فى الضمير يُبين مـعْناه الخطاب
ومن الأمانِى ما يبينه ، الحياء والاضطراب
وأرى العيون لها حـديث ليس يخطئه الصواب
تبدى السرائر مثلما يبدو من الكأس الشراب
فتعرّفى بالروح روحى ، وافهمى لغة العيونِ
وبحق ما بينى وبينك من هوى لا تسأليني

* * *

وقد عثر ، بعد طول المطاف ، بهواه المنشود ، فأخذ يتغنى به فى قصيدته : « من هى . . . ؟ »[1] .

---

[1] مجلة الرسالة ٧٦٧ .

مكتبتنا العربية

كنت مِنْ قبل هواها حائرا بين الغوانى
لا أرى الروح الذى أبحث عنه فى زمانى
ذلك الروح الذى يدعوه روحى وكيانى
وألتقينا وتعارفنا ، كأنا توءمان
ونشأنا فى ربا الحبّ ، وفى ظلّ التدانى
وشربنا الصفو خمرا فى كئوس من حنان

* * *

سألتنى ذاتَ يومٍ وعراها ما عراها :
من تراها ألهمتك الشعر سحراً ، من تراها ؟
قلت : يا أحلامَ أيامى ، ويا سرّ مناها
أنت أغنيّة حب وأنا شعرى صداها
أنت فى صحراء عمرى روضةٌ طاب شذاها
وأنا البلبل يحيا شاديا فوق رباها

* * *

كل حرف فى قصيدى مهجة تهفو إليكِ
كل لحن فى نشيدى لهفة تحنو عليكْ
إن أفراح شبابى نبعها السامى لديك
وصبابات فؤادى سرّها فى ناظريك
وأزاهير غرامى عطرها فى وجنتيك
وحياتى — يا حياتى — كلها ملك يديك

* * *

أما بعد ، فإنه يلذنى أن أباهى بهذا الشاعر الشاب ، الذى أتنظّر له مستقبلا شعريا ممتازا : ولكنى أتهم عليه عواطفى ، وأختان رأيى : بيد أن ديوان أشعاره مجلتا : الكاتب المصرى ، والرسالة : أكبر المجلات العربية فى الشرق ؛ ولا يكاد يخلو عدد من أولاهما ، من قصيدة له ؛ فليتتبع هذا الديوان ، كما تتبعته ، كلٌّ من خامره فى رأيى ما خامرنى ، حتى يحكم بعد امتحان وعيان .

فأما أنا ، فقد تكلمت . . . ؟

مكتبتنا العربية

فلسفة القرآن

والحياة الآخرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف الشيخ
المدرس بكلية أصول الدين

يجزم الأستاذ العقاد فى مقاله : الحياة الأخرى ، من كتابه ، الفلسفة القرآنية ، بأن العذاب فى الحياة الثانية للآثمين جميعا ، تطهير وتكفير ، ثم ينتهى الأمر بهم جميعاً ، بعد ما قطعوا مراحل التطهير والتكفير ، إلى حظيرة الرضوان .

قال الأستاذ فى آخر مقاله : « إن العذاب تطهير وتكفير ، وإن الأنفس جميعا تتلاقى فى حظيرة الرضوان » .

يجزم الأستاذ بأن ذلك شريعة القرآن الكريم ، ثم استشهد على هذا التلاقى وتلك النهاية الرضوانية ، كما قضت به شريعة القرآن الكريم ، بما يكاد يكون إجماعا من مفسرى الكتاب المبين ، بأن عذاب الآخرة ينتهى إلى الغفران ، وأن الخلود والأبد فى الآيات الكريمة ، يراد بهما الزمان الطويل .

قال الأستاذ فى مقاله : « فهذا المعنى ملحوظ فى تقدير العذاب الذى يتلى به المذنبون بعد الموت ، كما قضت به شريعة القرآن الكريم : فإن المفسرين كادوا أن يجمعوا على انتهاء عذاب الآخرة على الغفران ، وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بغير انتهاء » .

ونحن ننكر على الأستاذ كلا الأمرين جميعا : فليس فى القرآن الكريم ما زعمه من الغفران لجميع الآثمين ، وليس فى كلام المفسرين شهادة بهذا الشمول وذلك العموم . وإنه ليأخذك العجب البعيد إذ ترى جمهور المفسرين على العكس مما زعمه الأستاذ العقاد ؛ فلقد يكاد ينعقد إجماعهم ، بل حكى بعضهم الإجماع ، على أن خلود الجحيم الذى كتبه الله سبحانه على المكذبين بآياته ، إنما هو خلود الأبدية الذى لا ينقطع ، وأنه الامتداد الذى لا ينتهى .

مكتبتنا العربية

وإنى أستعرض آيات الخلود وما عول عليه المفسرون فى بيانها وتفسيرها ، لترى مبلغ تجنى الأستاذ العقاد على التفسير والمفسرين .

فى القرآن الكريم إحدى وثلاثون آية فى خلود الكافرين فى دار الجحيم .

أول آية منها فى سورة البقرة ، قوله تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

تلك أول آية فى كتاب الله تعالى تحدثت عن الكافرين والمكذبين بآياته وعما أعد لهم من الجزاء ، فقضت بأنهم من أصحاب النار وأنهم فيها خالدون . ولقد عنى المفسرون هنا فيما عنوا بمسألة الخلود فى الآية الكريمة ، وأن المراد منه ماذا حتى يتقرر مبدأ تحمل عليه جميع آيات الخلود : أهو الأبدية اللانهائية ، أم المكث الطويل وإن لم يعقبه غفران وتلاق فى حظيرة الرضوان ، كما يتمنى الأستاذ العقاد ؟

١ — قال الطبرى فى تفسيره جامع البيان فى تفسير القرآن الجزء الأول صفحة ١٩٦ : « أولئك أصحاب النار ، يعنى أهلها الذين هم أهلها دون غيرهم المخلدون فيها أبداً إلى غير أمد ولا نهاية ، كما حدثنا سعيد بن يزيد ، وحدثنا به عقبة بن سنان البصرى ، قال حدثنا حسان بن مضر ، قال حدثنا سعيد بن يزيد ، وحدثنا سوار بن عبد الملك العنبرى ، قال حدثنا بشر بن المفضل ، قال حدثنا أبو مسلمة سعيد بن زيد ، وحدثنى يعقوب بن ابراهيم وأبو بكر بن عون ، قالا : حدثنا إسماعيل بن علية عن سعيد بن يزيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون . ولكن أقواما أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة » .

٢ — وقال أبو السعود فى تفسيره إرشاد العقل السليم الجزء الأول صفحة ١١٥ فى تفسير الآية : « والخلود فى الأصل المكث الطويل ، وقد انعقد الإجماع على أن المراد به الدوام » .

٣ — وقال القاضى البيضاوى فى تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل الجزء الأول صفحة ١٤٦ : « إن عذاب النار دائم ، وإن الكافر فيه مخلد ، وإن غيره لا يخلد فيه ، بمفهوم قوله تعالى « هم فيها خالدون » .

مكتبتنا العربية

٤ — وقال الألوسى فى تفسيره روح المعانى الجزء الأول صفحة ٢٠١ : « والخلود هنا الدوام على ما انعقد عليه الإجماع » .

٥ — وقال الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب الجزء الأول صفحة ٣١٥ « لما وعد الله تعالى متبع الهدى بالأمن من العذاب والحزن ، عقبه بذكر من أعد له العذاب الدائم فقال « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » سواء كانوا من الإنس أو من الجن فهم أصحاب العذاب الدائم » .

٦ — وقال المحلى فى تفسيره الجلالين الجزء الاول صفحة ٤٥ « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » : ماكثون فيها أبدا لا يفنون ولا يخرجون » .

٧ — وقال ابن كثير فى تفسيره الجزء الأول ١٨٤ فى معنى الخلود فى الآية « هم فيها خالدون » : أى مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص » وساق شاهدا على ذلك حديث الطبرى السابق ، ثم أسنده لمسلم من حديث شعبة عن أبى مسلمة .

٨ — وقال البغوى فى تفسيره معالم التنزيل صفحة ١٤٨ « هم فيها خالدون » لا يخرجون عنها ولا يموتون » .

٩ — وقال الخطيب فى تفسيره السراج المنير الجزء الأول صفحة ٥٠ « فيها خالدون » : ماكثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها » .

١٠ — وقال النيسابورى ، فى تفسيره ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان الجزء الأول صفحة ٢٥٩ على هامش الطبرى : « والذين كفروا ، لجحدهم مولاهم ، وكذبوا بآياتنا ، لإثباتهم حكما لهم بحسب مشتهاهم وهواهم ، أولئك أصحاب النار ، ملازموها دائماً سرمداً ، سواء كانوا من الإنس أو من الجن ، أعاذنا الله تعالى منها بعميم فضله ، وجسيم طوله » اهـ .

هناك مفسرون سكتوا عن تفسير الخلود فى تلك الآية اكتفاء وإحالة على تفسيره فى آية قبلها هى قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » .

١١ — قال الزمخشرى فى كشافه الجزء الأول صفحة ٤٤ « الخلد : الثبات الدائم والبقاء اللازم الذى لا ينقطع ، قال الله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » .

مكتبتنا العربية

١٢ — وقال القرطبي فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول صفحة ٣٣٠ بعد أن شرح الآية وقد وصل الى آخرها « وهم فيها خالدون » وباقى ألفاظ الآية تقدم معناها والحمد لله تعالى — يريد أن شرح الخلود قد سبق فى آية قبل هى قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » قال ههنا صفحة ٤١٠ : « والخلود البقاء ومنه جنة الخلد ، وقد تستعمل مجازا فيما يطول ، ومنه قولهم فى الدعاء : خلدالله تعالى ملكه أى طوّله » .

« وقال زهير :

ألا لا ترى على الحوادث باقيا ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وأما الذى فى الآية فهو أبدى حقيقة » .

١٣ — وقال فى تفسير المنار الجزء الأول صفحة ٢٨٨ « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » قال : تقدم تفسير الخلود فى آخر الآية (٢٥) ثم قال : « أولئك الكافرون المكذبون بعدما هم دون متبعى هداى ، أصحاب النار وأهلها ، هم فيها خالدون لا يظعنون عنها » .

وقال فى تفسير الآية (٢٥) « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » قال : « والخلود فى اللغة طول المكث ، ومن كلامهم : خلد فى السجن . كما فى الأساس . وفى الشرع : الدوام الأبدى ، أى لا يخرجون منها ولا هى تفنى فيزولون بزوالها . وإنما هى حياة أبدية لا نهاية لها » .

هذه آراء جمهرة من أعلام المفسرين تمثل عصورا مختلفة ، بل حكى بعضها الإجماع على أن الخلود الذى نطقت به آيات الوعيد فى شأن الكافرين بالله تعالى المكذبين بآياته إنما هو خلود الأبدية التى لا تنتهى والامتداد الذى لا ينقطع ، وهذا ما اعتمده المتكلمون وعلماء العقائد الإسلامية فى مقرراتهم العلمية كما وعيته فى مقالنا السابق » .

نعم هناك آيات من الكتاب المبين حمل بعض المفسرين فيها الخلود على المكث الطويل لاعتبارات فى موضوع هذه الآيات، لكن ليس فى هذا ما يسعف الأستاذ، بل فيه الحجة التى تهدم ما زعمه. وسيكون ذلك موضوع مقالنا التالى ؟

مكتبتنا العربية

الاعتراف بالجميل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحيم العدوى
شيخ معهد فؤاد الأول بأسيوط

الاعتراف بالجميل خلق نبيل ، يجمع شتات كثير من خصال البر ، كالوفاء والمروءة ، والإحسان ، والشجاعة ، والصبر . فهو الصورة الناطقة بما كمن فى نفوس الناس من شيم حسان ، وهو صدى ما يتردد بين جوانحهم من كريم السجايا .

ثم هو بعد ذلك وسيلة قريبة للنبوغ ، بما فيه من حسن تقدير وتشجيع ، وسبيل معبّد للإجادة والإحسان فيما يباشره الناس من أعمال .

أما المعترف بالجميل فلست أدرى من أى ناحية أعجم عوده وقناته لا تلين لغامز ، ولا من أى جهة أسبر غوره وقد جمع أمهات الفضائل ، ولم جوانب الأحاسيس النبيلة . فهو حامل لواء التعاون ، وهو زعيم أهل الوفاء . هذا ما دام حيا ، حتى إذا انحدر الى بطن التاريخ كان أحدوثه عذبة النغمات ، وسجلا ناصع السطور والصفحات

ولم لا يكون كذلك وهو يعترف بالجميل لأنه جميل ، ويقوم بشكر الصنيعة لأنها صنيعة ، لا يبغى من وراء ذلك مغنما ، ولا يترقب شهرة وجاها ، طابت سريرته ، وحسنت نواياه ، فلا يداجى فى تقديره ، ولا يدارى ولا يخالف مخبرُه مظهَره .

أما الذين يقدرون صنائعك لتكون همزة الوصل لإدرار الخير عليهم ، ويحمدون المعروف ليسلس قياده لديهم ، ويخضعون عند الحاجة ويتيهون عند الاستغناء ، فهم تجار جشعون ، يبيعونك اليوم ما يقبضون ثمنه غدا ، وهم فى المجتمع حشرات خطيرة يسرى داؤها سريان السم فى الأجسام ، وجراثيم وبيلة تفتك بالأخلاق فتك معضلات الأدواء .

هذا إذا لم يكبح جماحهم ولم يؤخذ على أيديهم . قال رجل من أهل البصرة للحسن البصرى « لم يأت الدهر بمثلك ، ولا أظن أنه يجود بمثلك الى يوم الدين » . فقال الحسن البصرى : « أمنافق أنت ! وهل تدرى علام أغلق بابى » !.

مكتبتنا العربية

وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على ان طريق الاعتراف بالجميل وعر على كل من لم يكن ذاخلق كريم ، وأن سبيله شائك إلا على من راض نفسه على المكارم : ذلك لأنه كما قلنا عنوان الشجاعة والصبر والصراحة فى القول والإحسان فى العمل والمروءة وحسن الذوق .

وبعض الناس لهم عقول ولكنهم لايهتدون بها الى حقائق الأشياء ، ولا يعرفون ما يرجع بالخير على نفوسهم ، ولهم عيون ينظرون بها ولكن بمنظار مصغر لا يكشف عن الأمور كما هى ، ولهم ألسنة قوالة فى غير حق جوالة فى كل باطل ، ولكنهم جبناء فى مواطن الجد ، عييون فى مواطن الحق ، خرس فى مظان الكلام .

وإذا كان الله تقدست ذاته وسمت صفاته ، قد طلب منا أن نرد التحية بأحسن منها أو بمثلها حيث يقول : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » . أفليس ذلك تقريرا لمبدأ العرفان بالجميل ؟ أو ليس ذلك أدبا إلهيا أدب به عز وجل عباده الصالحين ، ليسود المجتمع الحب والسلام والتعاون ؟ .

وإنى لأعجب لذلك الشخص الذى يكدح فى الحياة ويتحمل متاعبها ولا يتبرم بمشقاتها وآلامها ثم تضعف نفسه عن شكر على صنيعة يمليه الذوق ، واعتراف بجميل تحتمه المروءة .

ولست أدرى حوافزه فى ذلك ولا دوافعه . فإن كان الترفع بالنفس والاعتداد بها عن طريق الكبرياء ، فما عرف حق نفسه ولا أحسن إليها . وإن ترفعا يدفع الخير ويمنع الود ، ويزدرى بالمروءة ، لجدير به أن يكون وليد الحسد وخبث النفس ، ككبرياء إبليس حرمه الجنة ، وجعله من المطرودين . ولاعجب فالحسد داء وبيل ، وشر مستطير ، وعنوان الفساد والبغى . وهو أول ذنب عصى الله به فى السماء ، وأول ذنب عصى به فى الأرض ؛ فأما فى السماء فحسد إبليس لآدم ؛ وأما فى الأرض فحسد قابيل لأخيه هابيل . ولذا يقول بعض المفسرين فى قوله تعالى حكاية عن أهل النار « ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » : إن المراد بالجن إبليس وبالإنس قابيل .

وإن كان الدافع لعدم الاعتراف بالجميل ، استصغار الصنيعة ، فقد أخطأ المرمى وجاوز الهدف ؛ فليس ثمة صنيعة مهما قلّت ولا معروف مهما دق وصغر ، بأضعف من أن يقابل بكلمة شكر أو عبارة ثناء .

مكتبتنا العربية

وإنه ليؤلمنى حقا أن أرى فى هـذه الحياة أشخاصا يعيشون على حساب الغير ولـكنهم مع الأسف الشديد لا يعترفون لهم بحق ، ولا يقرون لهم بمعروف ، يعتقدون أن كل ما يقدم لهم من خير ، وما يسدى إليهم من صنائع البر ، حتم لازم على من قدمه ، وفريضة محكمة على مسديه ؛ كأن الناس جميعا مسخرون فى خدمتهم ، أو أرقاء يعملون بإشارتهم . وما دام هذا الضعف موجودا بين بنى الإنسان فسيلقون منه عنتا ، ويصيبون منه حرجا .

وبعـد ؛ فإن عرفان الجميـل خلق النفس الـكبيرة ، رضى هـؤلاء أم أبوا ، وصفة الأقوياء فى الإيمـان ، اعترف هؤلاء أم أنكروا .

يقول بعض العرب : والله لقد سمعت تغريد الأطيار على غصون الأشجار ، وسمعت خفق العيـدان وأصوات القيان ، فما طربت من صوت قط طربى من ثنـاء حسن بلسان حسن على رجـل أحسن ، ومن شكر حـر لمنعم حـر ، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر .

وكانت الفرس تقول : الشكر أفضل من النعمة ، لأنه يبقى وتلك تفنى .

وضرب الحجاج أعناق أسارى أتى بهم ، فقال رجل ممن قدم للقتل : والله لئن كنا أسأنا فى الصنيعة ، فما أحسنت فى المكافأة ! فقال الحجاج : أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن مثل هـذا ! وكف عن القتل .

ومن أروع الصور فى عرفان الجميل ما فعلته نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان ابن عفان رضى الله عنه رعاية للوفاء وحفظا للعشرة : طلبها معاوية بعد موت عثمان فردته ، ثم قالت : ما يعجب الناس منى ؟ قالوا : ثناياك . فكسرت ثناياها ، وبعثت بها الى معاوية .

وقريب من هذا ما فعله بعض أبنـاء الملوك من غسان مع البرامكة بعـد نكبتهم ؛ فقد كان يذهب الى خربات دورهم فى ظلام الليل وقد نامت العيون فيبكيهم ويرثيهم بالأبيات الشعرية النوابغ ، فوشي به الى المأمون ، فلما مثل بين يديه قال له المـأمون : « ما الذى فعله معك البرامكة حتى استوجبوا منك كل هذا ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندى أيادى خضرة ، إن شئت حدثتك ببعضها » فلما قص عليه قصته أمر بإخلاء سبيله وإرجاع ما صودر له

مكتبتنا العربية

من ضياع مع إعفائها من الخراج . فبكى الغسانى ، فقال المأمون : ما يبكيك وقد أحسنا إليك ؟ فقال : أبكى البرامكة لأنهم يحسنون الى أحياء وأمواتا !. فقال المأمون : وكيف ذلك ؟ قال : لو لم أذهب الى دورهم من كان يعلم أمر المؤمنين بى ؟ فقال المأمون : اذهب فايكهم ونحن معك .

أما صلة الاعتراف بالجميل بمبادىء الإسلام ، فهى الصلة التى لا تجارى . فقد أكثر القرآن الكريم من الحث عليه ، وبالغ فى طلبه فى صور شتى وأساليب متنوعة ، تارة تصريحا ومرة تلويحا .

استمع إليه وهو يقول : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

ويقول : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ، ويقول «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الى غير ذلك مما لا يحصيه العد ، ولا يأتى عليه الاستقصاء .

وكان الرسول الكريم يقول لعائشة : هيه أبياتك افتنشده قول زهير بن جناب

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما

يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فيقول نعم يا عائشة : لا شكر الله من لا يشكر الناس ؛ يقول الله عز وجل : عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة على يديه .

وقد نعى القرآن الكريم على من كفر بالنعمة وغمط الحقوق ، وصوره لنا فى صور ممقوته وألوان مزدراة . حيث يقول « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين» .ويقول «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه،وإذا مسه الشر فذودعاء عريض » ، ويقول« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية:جنتان عن يمين وشمال:كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » . ويقول « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به

مكتبتنا العربية

موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا،وعلتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ،قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى حديثه عن النساء « أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء،فقيل:ولم يا رسول الله ؟ قال: يكفرن،قيل:أيكفرن بالله ؟ قال:لا ، يكفرن العشير،لو أحسنت الى إحداهن الدهر ثم رأت منك بادرة قالت ما رأيت منك خيرا قط » .

وبعد ، فإن نعم الله علينا مترادفة لا تزول ، وآلاءه علينا لا تحصى ولا تعد . وهبنا السمع والبصر والفؤاد ، والمال والبنين والجاه والسلطان ، وسخر لنا ما فى الكون من حيوان وجماد : فهل قمنا بشكر هذه النعم ، أو قدرنا هذه الآلاء ؟ ! .

وبين أيدينا ملوك وأمراء وقواد وزعماء أسدوا الى أممهم كل خير ، ورفعوا رأسها عاليا ، وقدموا لها كل ما يقع تحت قدرة البشر من وسائل العزة وأسباب السعادة ، فهل رأينا من يقدر ذلك مخلصا ، أو يقوم بواجب الشكر احتسابا ؟!

ولولا صفحات فى التاريخ يشع سناها للقدوة والتأسى ، لذهب خبر تلك الآثار ، وانطوى مع الليل والنهار .

ونحن فى العصور الحديثة حدث بين ظهرانينا صناعات نافعة ومشروعات مفيدة ، ضحى أصحابها بكثير من راحتهم فى سبيل إسعاد أمتهم ، فهل رأينا تشجيعا ملموسا ، أو تقديرا لهذه الأمور محسوسا : تقديرا إيجابيا ، وتشجيعا عمليا ، يدفعها الى الأمام ، ويتعهد أطوار تقدمها بالجاه والمال واليد واللسان . فهل رأينا من يفعل ذلك قياما بواجب الوطن ، واعترافا بمجهود المواطنين ؟ ! يعقل الخجل لسانى حين أقول : لا ! .

فاللهم اهد قومى الى الصراط المستقيم ، وهيىء لهم من أمرهم رشدا ؟

مكتبتنا العربية

أبو ذر الغفارى

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

عَلَم من علماء الإسلام ، وشخصية من أبرز شخصياته ، وصحابى من جملة صحابة رسول الله ، يتردد اسمه كثيرا على ألسنة المحدثين ، وفى كتب الحديث ، لكثرة ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجمعت له كل العناصر التى يجب توافرها فى العظيم ، فكان عظيما . وهو أحد أولئك الرجال الذين حفلت بمناقبهم ومحامدهم كتب السيرة والتاريخ ، فكانوا شهداء على فضل الإسلام فى خلق الشخصيات وتكوين الرجال .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

واسمه على المشهور : جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد الغفارى ؛ ينتهى نسبه الى نزار : وغفار قبيلة من كنانة .

يشترك العظماء فى كثير من الفضائل التى تكوّن شخصياتهم ، ويمتاز كل منهم بقدر منها يكون فى صورته الألوان البراقة التى تلفت الأنظار وتبهر الأبصار . وكذلك كان أبو ذر : فقد امتاز بقدر من الفضائل جعله كما قال النبى صلى الله عليه وسلم وحيدا : فقد روى أن النبى عليه السلام قال : « يرحم الله أبا ذر ! يعيش وحيدا ، ويموت وحيدا ، ويحشر وحيدا » ! .

ويضيق مجال القول عن إحصاء فضائله ، ورسم صورة كاملة تلم بنواحى عظمته ، وتجمع أطراف المجد من سيرته . وحسبنا أن نشير الى ما امتاز به أبو ذر من المحامد ليكون ذلك بمثابة الألوان البراقة ، ليبرز صورته واضحة قوية ، كما كان فى حياته واضحا قويا .

مكتبتنا العربية

يمتاز أبو ذر فى نظرنا بخصال ، أهمها : الفطرة ، وصفاء الطبيعة : والصبر على احتمال الأذى فى سبيل العقيدة ؛ وحبه المعرفة والبحث عن الحقيقة ؛ وزهده فى الدنيا ، وانصرافه عن مغرياتها .

وتتجلى فطرته فى انصرافه عن عبادة الأوثان ، وإقباله على عبادة الله قبل الإسلام : روى عبد الله بن الصامت قال : قال لى أبو ذر رضى الله عنه : يابن أخى صليتُ قبل الإسلام بأربع سنين . قلت له : من كنت تعبد ؟ قال : إله السماء . قلت : فأين كانت قبلتك ؟ قال : حيث وجهنى الله عز وجل . ويتجلى ذلك أيضا فى مبادرته الى الإسلام ، فقد كان رابع أربعة أسلموا قبله .

ويكشف لنا عن قوة عقيدته وتحمل الأذى فى سبيل ما يؤمن به ، ما جاء فى قصة إسلامه : فقد روى عنه أنه قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فعلمنى الإسلام وقرأت من القرآن شيئا ، فقلت : يا رسول الله إنى أريد أن أظهر دينى ؛ فقال رسول الله : إنى أخاف عليك أن تقتل ، قلت : لابد منه وإن قتلت ! قال : فسكت عنى ، فجئت وقريش حلق يتحدثون فى المسجد ، فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فانتفضت الحلق فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر - يعنى أنهم أسالوا دمه فاحمرت ثيابه - وكانوا يرون أنهم قتلونى ، فأدفت فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى ما بى من الحال ، فقال لى : ألم أنهك ؟! فقلت : يا رسول الله كانت حاجة فى نفسى فقضيتها . فأقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الحقْ بقومك فإذا بلغك ظهورى فائتنى .

وروى عن أبى ذر أنه قال : بينا أنا واقف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : يا أبا ذر : أنت رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى . قلت : فى الله ؟ قال : فى الله . قلت : مرحبا بأمر الله ! .

وحبه للمعرفة والبحث عنها والتقصى فيها ، عالما ومتعلما ، يبدو لنا فى حرصه على صحبة النبى صلى الله عليه وسلم وكثرة مساءلته ووفرة ماروى عنه من الحديث : فقد روى عن أبى ذر واحد وثمانون ومائتا حديث . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى أبا ذر إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب .

مكتبتنا العربية

ومن أمثلة حبه للمعرفة وتقصيه عنها ، ما روى عنه أنه قال : دخلت المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده ، فجلست إليه ، فقال : يا أبا ذر إن للمسجد تحية ، وإن تحيته ركعتان فقم فاركعهما . قال : فقمت فركعتهما ثم عدت فجلست إليه ، فقلت : يا رسول الله إنك أمرتنى بالصلاة فما الصلاة ؟ قال : خير موضوع ، استكثر أو استقل . قلت : يا رسول الله فأى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله عز وجل ، وجهاد فى سبيله . قال : قلت : يارسول الله فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟ قال : أحسنهم خلقا . قال : قلت : يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟ قال : من سلم الناس من لسانه ويده . قال : قلت : يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟ قال : من هجر السيئات . قال : قلت : يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟ قال : طول القنوت . قال : قلت : يا رسول الله فما الصيام ؟ قال : فرض مجزى وعند الله أضعاف كثيرة . قال : قلت : يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟ قال : من عقر جواده وأهريق دمه . قال : قلت : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : جهد من مقل يصير إلى فقير .

وكما كان حريصا أن يعرف ويتعلم ، كذلك كان حريصا أن يعرف ويعلم جريئا فى تعليمه وفتواه .

روى عنه أن رجلا أتاه فقال : إن مصدقى عثمان ازدادوا علينا — أى المحصلين للصدقة — أنغيب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا ؟ قال : قف مالك وقل : ما كان لكم من حق فخذوه ، وما كان من باطل فذروه ، فما تعدوا عليك جعل فى ميزانك يوم القيامة : وعلى رأسه فتى من قريش : فقال : أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟ فقال : أرقيب أنت على ؟ فوالذى نفسى بيده لو وضعتم السيف ههنا ثم ظننت أنى منفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تحتزوا رأسى — أى تقطعوا — لأنفذتها ! وكان كما قال صاحب الحلية : أول من تكلم فى علم البقاء والفناء .

أما انصرافه عن الدنيا وإقباله على الآخرة ، فقد بلغ فيه الذروة ، وأوفى على الغاية ، وكان له فى ذلك مذهب عرف به وروى عنه وهو ، أنه يحرم على الإنسان أن يدخر من المال مازاد عن حاجته » . وقد شبه لذلك بعيسى عليه السلام . وقد ذهب بعض الكاتبين الى أن هذا المذهب يتفق وبعض المذاهب الاجتماعية الحديثة ، ولكنه

مكتبتنا العربية

لا يتفق وروح الشريعة الإسلامية التى تبيح ادخار المال مهما كان بشرط أداء حق الله وحق الفقير فيه ، كما تبيح التمتع بطيبات ما أحل الله . وقد يكون هذا من أبى ذر مبالغة فى الزهادة .

وقد دعا أبو ذر الى مذهبه هذا بالفعل والقول ، ولم يكن ممن قال الله فيهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . وكان التخشن فى كل شىء أسلوبه فى الحياة .

روى عبد الله بن خراش قال : رأيت أبا ذر بالربذة فى حلة له سوداء وتحته امرأة سحماء ، وهو جالس على قطعة جوالق ، فقيل له : إنك امرؤ مايبقى لك ولد ، فقال : الحمد لله الذى يأخذهم فى دار الفناء ويدخرهم فى دار البقاء ! . قالوا : يا أبا ذر لو اتخذت امرأة غير هذه ؟ قال : لأن أتزوج امرأة تضعنى أحب الى من امرأة ترفعنى . فقالوا له : لو اتخذت بساطا ألين من هذا ؟ قال : اللهم غفرا خذ مما خولت ما بدا لك .

بعث إليه أمير الشام بثلاثمائة دينار وقال له : استعن بها على حاجتك ، فقال أبو ذر للرسول : ارجع بها إليه ، أما وجد أحدا أهون على الله منا ؟ ما لنا إلا ظل نتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، وخادم لنا تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إنى لأتخوف الفضل .

ومما روى عنه فى الدعوة إلى مذهبه : أنه وقف مرة عند الكعبة فقال : هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق !! فاجتمع عليه الناس ، فقال : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد مايصلحه ويبلغه؟ قالوا : بلى ، قال : فسفر يوم القيامة أبعد ما ترون ، فخذوا له ما يصلحكم ، قالوا وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم ، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها .

اجعل الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الآخرة ، ومجلسا فى طلب الحلال ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده . اجعل المال درهمين : درهما تنفقه على عيالك من حله ،

مكتبتنا العربية

ودرهما تقدمه لآخرتك ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده . ثم نادى بأعلى صوته : يأيها الناس ! قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا !! .

ومن كلامه فى ذلك أيضا : فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم . فان استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن .

وقد ظل أبو ذر على أسلوبه هذا طول حياته ، لم تتعلق نفسه بشىء من مفاتن الدنيا . وقال : إنى لأقربكم مجلسا من رسول الله يوم القيامة ، وذلك أنى سمعته يقول : إن أقربكم منى مجلسا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها ، وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشىء منها غيرى ! .

ولقد كان فى وفاته غريبا ، كما كان فى حياته غريبا ؛ فقد خرج مع أمه إلى فلاة فحضرته منيته ، فبكت أمه ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أبكى أنه لا يد لى بتكفينك ، وليس لى ثوب من ثيابى يسعك كفنا ، وليس لك ثوب يسعك كفنا ... ! قال : لا تبكى فإنى سمعت رسول الله يقول لنفر أنا منهم : ليموتن منكم رجل بفلاة فتشهده عصابة من المؤمنين . فما ليث أن مرت به عصابة من المؤمنين فقال : أنشدكم الله والإسلام أن يكفننى رجل منكم ما كان أميرا ولا نقيبا ولا عريفاً ولا بريدا ، فلم يوجد منهم كما شرط إلا فتى من الأنصار قال : يا عم أنا أكفنك ، لم أصب مما ذكرت شيئا ، وفى ردائى هذا وفى ثوبين فى عيبتى معى من غزل أمى حاكتهما لى . قال : أنت فكفنى ، فكفنه الأنصارى .

وصدق فى أبى ذر ما قاله رسول الله : يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ، ويموت وحده ، ويحشره وحده .

ودفن بالربذة سنة إحدى وثلاثين من الهجرة .

هذه صورة جد موجزة لأبى ذر ، رسمتها بأبرز ما ذكر فى سيرته من المناقب . رحم الله أبا ذر ، ورضى الله عنه وأرضاه ، ووفقنا لترسم خطاه ؟

مكتبتنا العربية

مسئولية الاطباء

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد ابراهيم
القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

وإذا قام الطبيب بعمل لا صلة له بمقتضيات العلاج ، وكان ذلك عمدا ، فإن مسئوليته تكون عمدية ، ويقتص منه إن كان القصاص ممكنا .

والشريعة الغراء تبيح للأطباء الاجتهاد فى علاج الأمراض ، فلا يسأل الطبيب لو خالف بعض آراء زملائه متى كان رأيه يقوم على أساس سليم ؛ وهذا الحكم واضح من الحالة التى سبق ذكرها ، حيث قيل بعدم ضمان الجراح لو قام بجراحة لفتاة سقطت من السطح رغم قول بعض الجراحين بأن إجراء الجراحة يسبب موتها . وقد قيد عدم الضمان فى هذه الحالة بأن يكون الشق معتادا غير فاحش وخارج الرسم ؛ وبمعنى آخر : اشترط لجواز إجراء الجراحة أن يكون لها أساس علمى .

ونلاحظ فى مذهب أبى حنيفة أن القاعدة هى أن الطبيب لا يسأل متى لم يتجاوز الموضع المعتاد ، ويعللون ذلك بأن الهلاك ليس بمقارن للعمل ، وإنما هو بالسراية بعد تسلم العمل ، والتحرز عنها غير ممكن ؛ لأن السراية تبنى على قوة الطباع وضعفها فى تحمل الألم ، وما هو كذلك مجهول ، والاحتراز عن المجهول غير متصور ، فلم يمكن التقييد بالمصلح من العمل لئلا يتقاعد الناس عنه مع مساس الحاجة (١) .

وظاهر من هذا التعليل أنهم يرجعون عدم المسئولية الى جهل الأطباء لقدرة الجسم على احتمال العلاج ، وما دام من غير المتيسر على الأطباء معرفة هذه القدرة

---

(١) الهداية والعناية جـ ٧ ص ٢٠٦

مكتبتنا العربية

فمن غير المقبول أن يسألوا عن أشياء يستحيل عليهم تعرفها . وهذا التعليل كان من الممكن قبوله وقت أن وضع هذا الحكم : أما اليوم وقد تقدمت العلوم الطبية تقدما باهرا ، فأصبح من المتيسر الى حد كبير معرفة الى أى مدى يستطيع الجسم تحمل علاج معين ، أو إجراء جراحة معينة . وقد ساعد على ذلك الى حد كبير تقدم علوم التحليلات الكيمائية والكشف بالأشعة عن الأجزاء الداخلية للجسم .

ويترتب على هذا التقدم فى العلوم الطبية ، أن مسئولية الأطباء واجبة متى أجروا جراحة ، أو وضعوا علاجا لا يحتمله جسم المريض ، أو حالته الصحية .

ثالثا : يشترط أن يكون تدخل الطبيب بناء على رضاء المريض أو إذن وليه إن كان قاصرا أو من فى حكمه . فليس من حق الأطباء أن يتولوا علاج الناس بغير رضاهم ؛ فلو أراد شخص أن يبقى مريضا بغير علاج ، فلا يمكن إرغامه على أن يعالج نفسه [1] : هذا فضلا عن أن من حق المريض أن يختار الطبيب الذى يعالجه : فالثقة بين الطبيب والمريض عامل من أهم العوامل التى تساعد على الشفاء .

ويترتب على ذلك أنه لو أجرى طبيب عملية جراحية بغير رضاء المريض فإنه يسأل عن فعله . ولكن ما نوع هذه المسئولية ؟ هل يسأل مسئولية عمدية أم غير عمدية ؟

ذهب بعض الفقهاء الى أن الطبيب فى هذه الحالة يستوى بأى فرد عادى ، فيسأل عن فعله مسئولية عمدية ، فلم يكن من الجائز له أن يجرى هذه الجراحة ما دام لم يطلب منه ذلك ، وحكمه فى ذلك حكم أى شخص عادى أجرى جراحة لآخر ، أى يسأل عن فعله مسئولية عمدية ، فيعاقب بعقوبة الجرح العمد .

وذهب آخرون إلى أن المسئولية فى هذه الحالة تعتبر غير عمدية ، ويعتبر الطبيب مخطئا ، لأنه لم يحصل على رضاء المريض بإجراء العملية الجراحية .

وهناك رأى ثالث يقرر أن الطبيب لا يصح سؤاله فى هذه الحالة إلا إذا ارتكب خطأ فاحشا فى عمله . ومعنى هذا الرأى أن الشرط الأخير من شروط

(١) يستثنى من ذلك بعض حالات الأمراض المعدية حيث تحتم القوانين إبلاغ الصحة عنها لتولى علاج المرضى وعزلهم عن عائلاتهم ، ولا يوجد فى قواعد الشريعة ما يمنع من هذا الاجراء .

مكتبتنا العربية

عدم المسئولية غير لازم ، بمعنى أن من حق الطبيب أن يعالج الناس ، وأن يجرى لهم الجراحات بغير رضاهم .

وفى الشريعة الإسلامية لا بد من الحصول على رضاء المريض أو وليه إن كان قاصرا أو من فى حكمه ، وهذا الشرط واضح من أن الصلة بين الطبيب والمريض تحكمها أحكام عقد الإيجار ، ومعلوم أن قيام العقد يستلزم توافق إرادتين : إرادة الطبيب وإرادة المريض أو وليه . ورغم وضوح ضرورة هذا الشرط من القواعد العامة فإن فقهاء الشريعة يشترطون ذلك صراحة لنفى المسئولية عن الطبيب [١]

وقد نص فى مذهب الشافعى على أنه إذا كان على رأس بالغ عاقل سلعة لم يجز قطعها بغير إذنه ؛ فإن قطعها بغير إذنه فمات وجب عليه القصاص ، لأنه تعدى بالقطع . وإن كانت على رأس صبى أو مجنون لم يجز قطعها ، لأنه جرح لا يؤمن معه الهلاك ؛ فإن قطعت فمات ، نظرت : فإن كان القاطع لا ولاية له عليه وجب عليه القود لأنها جناية تعدى بها ؛ وإن كان أبا أو جدا وجبت عليه الدية ؛ وإن كان ولياً غيرهما ففيه قولان : أحدهما أنه يجب عليه القود لأنه قطع منه مالا يجوز قطعه ؛ والثانى : أنه لا يجب القود لأنه لم يقصد القتل ، وإنما قصد المصلحة : فعلى هذا يجب عليه دية مغلظة لأنه عمد الخطأ [٢] .

وواضح مما تقدم أن مسئولية الطبيب إذا باشر العلاج بغير إذن ، تكون مسئولية عمدية ، فيقتص منه متى كان القصاص ممكنا . ولم نجد فى غير مذهب الشافعى تحديداً واضحاً لمعنى الضمان الواجب على الطبيب إذا أجرى جراحة بغير رضاء المريض أو وليه ، وهل المقصود من الضمان القصاص أم الدية ؟ ومع ذلك فإننا نعتقد أن المقصود بالضمان القصاص : لأن فعل الطبيب فى هذه الحالات عمدى ، ولا يوجد ما يسوغه ، أو ما يسقط القصاص عنه .

ويستثنى فقهاء القوانين الحديثة من ضرورة الحصول على إذن المريض أو وليه ، الحالات التى تستوجب الإسعاف العاجل ، والتى لا يمكن فيها انتظار

---

[١] المغنى جـ ٦ ص ١٢١ ، الشرح الكبير جـ ٦ ص ١٢٤ . المهذب جـ ٢ ص ٣٠٦ . الهداية والعناية جـ ٧ ص ٣٠٦ .

[٢] المهذب جـ ٢ ص ٣٠٦

مكتبتنا العربية

الحصول على هذا الرضاء . لما فى ذلك من خطر بليغ يعود على المريض . فلو نقل شخص إلى إحدى المستشفيات مغمى عليه لمرض أو نتيجة إصابة جنائية ، فإن الأطباء يقومون بالواجب عليهم نحو علاجه ، رغم أنه لم يوافق على أن يقوموا بعلاجه ، بل ولم يؤخذ رأيه فى ذلك . والواقع أنه فى هذه الحالات قد لا يفيق المريض إلا بعد أن يبدأ فى علاج سبب الإغماء ، وقد لا يشعر أحد من أهله بما حدث له . فكيف يمكن اشتراط ضرورة الحصول على رضاه أو الإذن من وليه .

والحجة التى يستند اليها فقهاء القوانين الحديثة فى إعفاء الأطباء من المسئولية فى مثل هذه الحالات ، هى أن الطبيب حين يقوم بعلاج شخص هذه حاله ، إنما يأتى خطرا عن شخص ناجم عن تعرّف مصلحته . فالإعفاء يقوم على أساس نظرية تسمى نظرية الضرورة ، وهى تعفى من العقاب الشخص الذى يقوم بفعل يستهدف به حماية لنفسه أو للغير من ضرر محقق .

ولم نجد فيما رجعنا اليه من كتب الفقه الإسلامى من تعرض لهذه الحالة ، وبيّن حكمها : ومع ذلك فإننا نعتقد أن حكم الشريعة فيها هو ضرورة إعفاء الأطباء من المسئولية من أعمالهم التى يؤدونها فى الحالة التى يستحيل فيها على المريض أن يبدى رأيه فى العلاج ، فإذا كان من الواجب ضرورة الحصول على إذن المريض ، فإن ذلك يجب تقييده بحالة ما إذا كان ذلك ممكنا . هذا فضلا عن أن الشريعة توجب على الناس التعاون والتعاضد ، ويجب على كل مسلم وجد آخر فى خطر أن يعينه وأن يساعده على النجاة ، ولا توجد مساعدة ألزم من معالجة الطبيب لشخص تستوجب حاله عاجل العلاج . ونذكر أخيرا أنه مما يساعد على القول بالإعفاء من المسئولية ، القاعدة الشرعية التى تقرر أن الضرورات تبيح المحظورات .

مكتبتنا العربية

الجامع الازهر

يحتفل بأول السنة الهجرية

احتشد جم غفير من علية القوم يتقدمهم معالى رئيس الديوان الملكى وجمهرة من علماء أعلام، ووجهاء وكبار الموظفين، وطلبة أزهريين، فلما أدوا صلاة العصر نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر، فألقى خطابة جامعة ألمّ فيها بنبذ من تاريخ ظهور الإسلام، وما أوجده فى العالم من نظام ووئام، وما أثمرته تعاليمه من مدنية فاضلة، وعمران عالمى، لا تزال آثاره قائمة الى اليوم: وألمّ بما لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول فى جمع كلمة العرب، وطلب الى الله أن يديم هذه النهضة المباركة، لتؤتى ثمراتها فى العالم. كل ذلك ببيان شائق، وعبارات بليغة، تقبلها السامعون بالإعجاب والإكبار. وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله الذى افتتح بالهجرة الشريفة النبوية أولى صفحات إعزاز دينه القويم، ونصر بها نبيه إمام المجاهدين، وقدوة المهتدين. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه.

إخوانى وأبنائى المسلمين:

تسعد الأيام بما تتمخض عنه من أحداث عظام؛ وإنه ليوم مبارك الطلعة، خليق أن يتخذه المسلمين عيدا: ذلك اليوم الذى هاجر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة، الى المدينة المنوّرة، فيتذكرون فيه من صفات الرسول صدقَ الإيمان، وقوة العزيمة، ونفاذ البصيرة، وكمال الشجاعة، وغاية الإيثار.

لقد أجمع خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم أمرهم على أن يتخلصوا منه،

مكتبتنا العربية

أطباء بغداد فى وقته ، وأن يمنح من يرضاه فى علمه وعمله إجازة لما يصلح أن يتصرف فيه من الطب (وترى من هذا أنه كان فى هذا العهد أطباء اختصاصيون). وقد كان هذا الأمر من المقتدر على أثر غلط طبيب فى العلاج أفضى الى مهلك المريض . ومما يذكر أن المقتدر أمر محتسبه أن يراعى ذلك فلا يأذن فى العلاج إلا لمن يحمل إجازة من سنان . وكانت وفاة سنان سنة ٣٣١ هـ

٣ — ويذكر الأستاذ أن عدم مسئولية الأطباء عن أعمالهم ليست محل خلاف من أحد . وهو يريد العالمين بالطب ،أو الذين يحرزون الشهادات الدراسية فى اصطلاح العصر الحديث . وهذا صحيح فى الفقه الإسلامى إذا أريد المسئولية الجنائية : فأما المسئولية المالية أو استحقاق الدية أو الأرش فليس الأمر هكذا على إطلاقه . فعند الفقهاء أن الطبيب العالم إذا أخطأ فى العلاج ـ بأن عالج بغير ما يقرره الطب ـ فإن الدية أو الأرش يقضى به . وتعتبر هذه الجناية خطأ: فالدية فيها مخففة على العاقلة . وهذا إذا كان العلاج بإذن المريض كما هو فرض المسألة . ولا بد أن يكون الآذن أهلا للإذن : بأن يكون حرا بالغاً عاقلا . ودو يأذن لنفسه ولمن له الولاية عليه كالصبى والعبد . نعم هناك حالة تسقط فيها المسئولية المالية أيضاً مع الخطأ : وذلك إذا أذن المريض فى علاج معين ؛ كأن يقول له : أعطنى هذا الدواء ، أو شق لى هذا العضو . ومما يذكر هنا أن خطأ الطبيب يكون باعترافه ، أو بشهادة رجلين من ذوى البصر بالطب .

وأسوق إليك كلام الفقهاء فى هذه المسألة ، وهم يمثلون لما نحن فيه بالفصد والحجامة والختان . والنصوص الآتية من كتب الفروع فى فقه الشافعية :

ا — فى المنهاج وشرحه للجلال المحلى : « ومن حجم أو فصد بإذن ممن يعتبر إذنه فأفضى الى تلف لم يضمن : وإلا لم يفعله أحد » . وكتب القليوبى عليه : « (قوله لم يضمن) إن كان عالما ولم يخطىء : أو قال المريض له : داونى بهذا الدواء مثلا : فإن أخطأ أو كان غير عالم بالطب ضمن مطلقاً » .

ب — وقال الشهاب الرملى فى كتابته على شرح الروض : « ولو أخطأ الطبيب فى المعالجة وحصل منه التلف ، وجبت الدية على عاقلته » .

مكتبتنا العربية

ج — وقال الشافعى رضى الله عنه فى الأم ج ٦ ص ١٦٦ : « وإذا أمر الرجل أن يحجمه أو يختن غلامه أو يبيطر دابته ، فتلفوا من فعله ؛ فإن كان فعل ما يفعل مثله مما فيه الصلاح للمفعول به عند أهل العلم بتلك الصناعة فلا ضمان عليه ، وإن كان فعل ما لا يفعل مثله من أراد الصلاح وكان عالما به فهو ضامن » .

د — وقال الشافعى فى الأم أيضا ج ٦ ص ١٦٨ : « والوجه الثانى الذى يسقط فيه العقل - يريد الدية - أن يأمر الرجلُ به البادُ الطبيبَ أن يبط[1] جرحه أو الأكلة [2] أن يقطع عضوا يخاف مشيها اليه ، أو يفجر له عرقا ، أو الحجام أن يحجمه ، أو الكاوى أن يكويه : أو يأمر أبو الصبىّ وسيد المملوك الحجام أن يختنه ، فيموت شىء من هذا ، فلا عقل ولا مأخوذية [3] إن حسنت نيّته إن شاء الله تعالى. وذلك أن الطبيب والحجّام إنما فعلاه للصلاح بأمر المفعول به » .

٤ — وفى ص ٨٢٠ يتحدث الأستاذ عن أساس انعدام المسئولية عند الفقهاء ، فيذكر أن الأساس عندهم هو رضاء المجنى عليه : إذ رأى جمهور الفقهاء أنه لو قال شخص لآخر : اقتلنى أو اجرحنى ، ففعل ، لا يقتص منه لرضاء المجنى عليه . والأستاذ لا يرضى هذا أساسا لعدم المسئولية ، وأن الأخذ به يستدعى عدم التفريق بين الطبيب العالم والجاهل المدعى لهذا العلم . والواقع فى الفقه أن إذن المريض فى العلاج ينشعب الى حالتين :

ا — الحالة الأولى: أن يكل المريض الأمر الى الطبيب يعالجه بما يراه ، وهذا هو المألوف فيمن يعرض نفسه على الطبيب : وهذا الإذن إنما يسمح به المريض لمن يراه أهلا للعلاج قينا أن يسلم إليه نفسه ، فكأن الإذن مشروط بعلم الطبيب وحسن درايته ؛ فأما الجاهل الذى يدلّس على المريض ، فإن إذن المريض له كلا إذن ، ورضاؤه لم يقع الموقع فلا عبرة به ، فتقع المسئولية إذن لانعدام الرضا الحقيق الذى هو أساس انعدام المسئولية .

وعلى هذا فالأخذ بهذا الأساس يقتضى التفريق بين الطبيب العالم وغيره من متعاطى الطب والمدعين له . وليس الأمر كما يذكر الكاتب الفاضل .

---

(١) أى يشق . (٢) أى الحكة .

(٣) هذه الكلمة يقابلها فى الاصطلاح الحديث المسئولية ، وهى أليق بالمعنى المراد من المسئولية فان سؤال المرء قد يكون فيما لا تبعة فيه ، فأما المأخذوية فانما تكون فيما فيه مؤاخذة وتبعة .

مكتبتنا العربية

ب — والحالة الثانية : أن يؤمّ المرء بعض الأطباء ، فيطلب اليه أن يفعل فعلا معينا من أعمال الطب ، فهذا لا مسئولية فيه ؛ لأنه إنما فعل فعلا مأذونا فيه من يملك الإذن ، فكأن الفعل منسوب الى المجنّ عليه ، فينجو الجانى من المأخوذية .

٥ — وترى صاحب المقال يعرض للفقهاء فى حكم ذكروه ، فيقول : « ونحن لا نسلم ما يقول جمهور الفقهاء : من أن الرضاء بالقتل أو الجرح يسقط القصاص » . وكان عليه قبل هذه المخالفة أن يتعرف ما دفع جمهور الفقهاء الى هذا الحكم الذى لا يرضاه . والفقهاء دُفعوا الى هذا بأشياء جاءت فى الشريعة ؛ ذلك أن القصاص أو الدية حق للورثة كما هو معروف . وقد عرض لهم هذا السؤال : هل هذا الحق للوارث ابتداء وبالأصالة ؟ أو هذا الحق فى الأصل للمجنى عليه ، ثم انتقل الى ورثته لما لم يمكنه استيفاؤه ، كما ينتقل الى الوارث مال المورث وتركته ؟ ورأى الفقهاء فى أحكام الشريعة أن ديون المالك بالجناية ووصاياه تقضى من الدية قبل توزيعها على الورثة ، فاستنبطوا من هذا أن الدية يملكها المجنى عليه أولا كالأموال التى يملكها بكسب يده سواء ، ثم تنتقل الى ورثته ؛ ولو أن الدية كانت ملكا للوارث ابتداء ما قضى منها ديون الميت ؛ وإذا ثبت هذا الحكم فى الدية ثبت فى نظيرها وهو القصاص ؛ وإذا ثبت أن هذا الحق يثبت للمجنى عليه ابتداء ، فمن البين أنه إذا أذن فى الجناية عليه الموجبة لهذا الحق ، لم يكن له شىء . ونرى الفقهاء لا يقفون عند القول بعدم المسئولية القضائية ، فتراهم يحذرون من الإقدام على الجناية مع الإذن بها ، ويذكرون أنه إثم يفسّق صاحبه . وبحسب المؤمن هذا رادعا له وزاجرا .

وكان يحسن بالكاتب أن يذكر أن فى الفقه رأيا آخر فى مسألة الإذن التى تتكلم فيها يرى المأخوذية القضائية : لأن الإذن وقع على شىء محرم ، فكان على المأذون أن يرتدع عنه ولا ينساق مع الآذن : ويمثل لذلك بما إذا أذنت الأمة فى الزنى بها مثلا ؛ ويجيب الآخذون بالرأى الأول وهم الجمهور بأن مسألة الزنى يدخل فيها حق الله تعالى ولا يملك الآذن النزول عنه ، بخلاف ما هنا فإن الدية أو القصاص من حق العبد ، فأما حق الله فوراء ذلك يستوفى من العبد بالعذاب إن لم يتناوله عفو الله .

وإنى اختم كلمتى بالثناء على الكاتب الفاضل والإعجاب بمقاله الجليل .

مكتبتنا العربية

مطالعات فى الجبرتى (٣)

العلماء سفراء وقادة

فضيلة الأستاذ محمود الشرقاوى

رأينا فى الفصلين السابقين كيف كان علماء الأزهر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين - حيث أرخ الجبرتى لمصر تاريخه الفريد [بجانب الآثار فى التراجم والأخبار] - هم السفراء والقادة ، فى وقت لا يستطيع أحد فيه أن يظهر بأى معارضة أو مخالفة لرغبة المماليك أو الباشا الذى كان يلى حكم مصر بالاسم تارة ، وبالفعل تارة ، من قبل الدولة العلية .

سفراء عند قوم يشك كل إنسان منهم فى كل إنسان ، ويتهم كل جار جاره ، ويوقع أهل كل بيت منهم بين بعضهم وبعض ، وينوجس كل أخ من أخيه .

وقادة بين قوم يقتل منهم الواحد والعشرة فى أقل سبب وبلا سبب ، وتنهب أموالهم وتسبى نساؤهم وأولادهم ، ثم يجد الناهب والقاتل والسالب كثيرين يقولون له : أحسنت ، أنت سيدنا ونحن ملك يمينك [1] !.

* * *

واليوم نرى فيما كتبه الجبرتى صورا أخرى من هذه السفارة والقيادة ، فيها من الدلالة وفيها من العبرة ما يشرف الأزهر ، ويرفع قدر ذلك النفر من رجاله الذين كانوا وحدهم رجالا ، بل أبطالا بين رجال ذلك الزمان .

ولم يكن علماء الأزهر هؤلاء يصبرون على ضيم ينال أمتهم مهما يكن مصدره . فهم يعارضون المماليك لا يخشون لهم بأساً ، وهم يعارضون رجال الدولة لا يخشون لهم ولا لدولتهم بأساً ، وهم يعارضون نابليون ورجاله رغم غلبتهم على مصر ودخولها بالفتح : تلك المعارضة القوية الدائبة المشرّفة التى كان لها أكبر الأثر فى النهاية

---

[1] عددى ربيع الأول وربيع الثانى لسنة ١٣٦٧ من « مجلة الأزهر »

مكتبتنا العربية

العاجلة التى انتهى إليها عهد الحملة الفرنسية على مصر ، كما كان لها أكبر الأثر فيما لقيه نابليون وقواده فى مصر من العناء والجهد والمشقة . ولعلنا فى فصل قادم نلخص عن الجبرتى أيضا مقتل كليبر بيد سليمان الحلبى الأزهرى ، ومحاكمة هذا الشاب على يد الفرنسيين .

أما اليوم ، فحديثنا عن الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وعن الشيخ شمس الدين أبى الأنوار .

* * *

عند ما دخل نابليون مصر بعد هزيمة المماليك ، أخذ يسعى لتخفيف المقاومة الشعبية التى يلقاها من المصريين ، فكان مما فعله إنشاء « الديوان » ليكون كمجلس نيابى يمثل أهل الرأى فى مصر ؛ ويتعرف منه نابليون رغبات أهل مصر ؛ وجعل الديوان فى آخر مراحله مكونا من أربعة عشر عضواً ، منهم خمسة من المشايخ ، هم : الشيخ الشرقاوى ، والمهدى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ؛ واثنين من التجار المسلمين هما : المحروقى . وأحمد محرم . والأعضاء السبعة الباقون من نصارى القبط والشوام ، و (ميخائيل كحيل ، ورواحة الإنجليزى ، وبودنى ، وموسى كافر الفرنساوى ، ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيس) .

وكان هذا المجلس يسمى المجلس المخصوص ، أو الديوان « الديمومى » ، لأنه دائم الاجتماع .

وهناك مجلس آخر يجتمع عند الاقتضاء ، وهو مجلس شعبى ، لأن أعضاءه كان أكثرهم « مشايخ حرف » [1] .

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للمجلس المخصوص بأمر من نابليون .

كان الشيخ الشرقاوى فى رياسته للمجلس المخصوص ، وفى علاقاته بنابليون وكبار رجاله ، يجد حرجا أى حرج .

وكذلك كان كبار المشايخ ورجال الأزهر : فهم يكرهون نابليون والفرنسيين ، مافى ذلك شك : ويعلمون أن المصريين يكرهونه ويكرهونهم أيضا . ولذلك كثيرا ما كانت تقوم الثورات من سكان القاهرة ضد نابليون ، وخاصة

---

(١) ص ٣٨ جزء ثالث من الجبرتى فى حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣

مكتبتنا العربية

من سكان الحسينية والأزهر . وكان المشايخ على الدوام يُتهمون من الفرنسيين بأنهم يشجّعون الفتنة إن لم يكونوا محرضين عليها . وكان الشيخ الشرقاوى يرى أن يدفع عن مصر ما يستطيع دفعه من شر نابليون ورجاله ؛ ولذلك قبل رياسة المجلس المخصوص ، وظل زمنا طويلا متصلا بالفرنسيين ، ليدفع من أذاهم بقدر ما يستطيع . وقد أمر الشرقاوى بأن يقفل الجامع الأزهر وتسمّرَ أبوابه بعد مقتل كليبر ، لأن الفرنسيين كانوا يفتشون فى داخله عن الأسلحة ، ويتهمون الأزهريين بالعمل على الثورة ، وإيواء العناصر الخطرة على الفرنسيين . وأقفل الجامع الأزهر فعلا ، وسمرت أبوابه ، بأمر شيخه الشيخ الشرقاوى ، حرصا على حياة أهله وسلامتهم [1] .

وقد أراد نابليون أن يضع الشرقاوى فى وضع يُظهره بمظهر الرضا عن حكم الفرنسيين لمصر ، ومظهر الصداقة لهم ، بأن يظهر له صداقته وتقديره بالإنعام عليه . وأراد - إن هو استطاع توريط الشرقاوى - أن يورط بقية المشايخ ، حيث لا يستطيعون أن يرفضوا ما قبله شيخهم . وجعل نابليون هذا التكريم الخطر للشيخ الشرقاوى علنيا ، حتى يحرجه ويشهر به ، ويظهره بمظهر الصديق أو التابع فى وقت واحد : ولكن الشيخ لم يمكن القائد الفاتح من مكره وكيده : بل رده اليه ، ولم يقبل خلعة نابليون ، حتى استشاط غضبه : ولم يستطع أن يقدم الى بقية المشايخ ما كان قد أعد لهم من الخلع .

يقول الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الأول من سنة ١٢١٣ ما يلى : « وفيه - أى فى اليوم العشرين من هذا الشهر - طلب صارى عسكر بونابارته المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان ، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى ، فرمى به الى الأرض وامتعض وتغير مزاجه ، وانتقع واحتد طبعه ، فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم . فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند

---

(١) ص ١٤١ من الجزء الثالث من الجبرتى

مكتبتنا العربية

إخواننا من المسلمين ! . فاغتاظ لذلك - يعنى نابليون - وتعكم بلسانه ، وبلّغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى : إنه لا يصلح للرياسة . »[1]

* * *

وفى ترجمة الوفيات التى ذكرها الجبرتى فى سنة ١٢٢٨ يترجم لرجل اسمه الشيخ ، شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين ، »[2] ثم يقول فى ترجمته: إن حسن باشا الجزايرلى عند ما قدم إلى مصر على رأس القرن ، وخروج الأمراء المصريون[3] إلى الجهة القبلية ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم ، وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعما أنهم أرقاء لبيت المال ، وفعل ذلك ، فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه ، فكان المخاطب له المترجم ، قائلا له : أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ، أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال ، فقال : هذا لا يجوز ولم يقل به أحد . فاغتاظ غيظا شديدا وطلب كاتب ديوانه وقال له : اكتب أسماء هؤلاء وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره ، فقال له السيد محمود البنوفرى : اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا . ! فأحجم وانكف عن إتمام قصده » .

« وكان ابراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة ، وكذلك مراد بك أودع عند محمد أفندى البكرى وديعته . وعلم ذلك حسن باشا ، فأرسل عسكرا إلى السيد البكرى ، فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده ، وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة ابراهيم بك فامتنع من دفعها قائلا : إن صاحبها لم يمت وقد كتبت على نفسى وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها فى قيد الحياة . فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، فكان يقول : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل ، فإنه أحرق قلبى »[4]

---

(١) ص ١٧ جزء ثالث من الجبرتى .

(٢) عين محمد على هذا الرجل نقيباً للأشراف بدل السيد عمر مكرم .

(٣) الأمراء المصريون هم المماليك .

(٤) ص ٢٠١ من الجزء الرابع من الجبرتى .

مكتبتنا العربية

الارادة الانسانية

قوتها والحاجة إليها

بقلم الدكتور محمد والى خان — تعريب الأستاذ عمر طلعت زهران

يمكننا أن نقرر عموما أن بعض الناس أقوياء الإرادة جدا ، ولكن معظم الناس ليسوا كذلك . والشخص القوى الإرادة يعتقد أنه إذا صمم رأيه على تحقيق غرض ما ، فإن عليه حتما أن ينجح فى تحقيقه . ويميل مثل هذا الشخص الى احتقار غيره ممن تنقصهم هذه القوة ، إذ أنه لا يفهم تماما هذا الضعف الذى يفتاب الكثيرين .

فإذا ما ارتبط هذا العزم بالدين ، فإن الشخص القوى الإرادة يميل غالبا الى الاعتقاد بأن ما يريده هو ، إنما يريده الله ، وإن وجدت مواطن ضعف فى أخلاقه فإنه زعيم بأن يتغلب عليها بعزم أقوى . وإنه ليدعو الضعيف والخائف الى التماسك ، غير منتبه إلى أن ذلك إنما يدعو الى ضعف أكثر وخوف أشد ، والى شعور أكثر بالإثم .

وقليل من الناس يحظون بهذا الثبات ، فهم يعرفون جيدا مواطن الضعف فيهم ، ويعرفون قوة عاداتهم واتجاهاتهم ، وحتى لو حاولوا اتباع ما يظنونه حقا ، فإن دوافعهم تسير بهم فى اتجاهات جد مختلفة . وهم لا يستطيعون التصميم على رغباتهم ، أو أن يتغلبوا بقوتهم الخاصة على خوفهم الهستيرى ، أو أن يحطموا قوة العادات التى أنشئت فيهم . وقد امتلأت ذاكرات معظم الناس بذكريات الحلول التى توصلوا إليها ، ولم يوفقوا الى تحقيقها .

إن الإرادة الإنسانية هى ذلك الجزء من الشخصية التام التنظيم ، والذى يدفع المرء دائما لتحقيق الأغراض التى تتمناها نفسه . وفى كثير من المسائل الصغيرة من أمور الحياة اليومية نجد أن الإرادة الإنسانية ذات أثر ، ولكن فى أعماق الشخصية الإنسانية توجد غرائز ودوافع لم تدخل بعد فى مجال النشاط المنظم للفرد ، وقد تكون هذه الغرائز والدوافع فى نزاع مع الإرادة ، ويبدو كأنما يوجد مركزان فى الشخص الواحد ، يتمنى كل تحقيق رغبات مختلفة .

مكتبتنا العربية

ومثل هذا الضال يجب أن يبت فيه : فإما أن تصير الإرادة هى آلة الدوافع المختفية ، فتسمو بالغرور وحب السيطرة : وإما أن تصير آلة للروح ولقوة الله ، تعمل فى إنسان قد وهب شخصيته لله فى الحب والعمل .

والإسلام ، يعتقد فى القوة الطبيعية للإرادة الإنسانية لتحقيق الأغراض الصحيحة للنفس . وهو لا يؤمن أن الإنسان يستطيع — بمجرد أن يصمم رأيه — أن يصبح كما ينبغى أن يكون . والإسلام دين تفاؤل فيما يختص بقدرة الناس على الاستجابة لأى نداء يوجه خاصة الى الإرادة : بل إنه يؤمن أن الإنسان يحتاج الى الخلاص والمساعدة ، وأن الله قد أمده بالمصادر الضرورية لحاجاته . ويجب ، قبل أن تتحرك الإرادة ، أن يكبح الخيال ، وأن تثار المحبة .

والإسلام إنما يخاطب قلوب الناس وولاءهم ، أكثر مما يخاطب عزائمهم : فالإسلام كلما كان أكثر تأثرا ، كان أقوى عزما .

إن المسلم ليدعو الله ، بخضوع وخشوع ، خمس مرات فى كل ليل ونهار ، أن ينهض عزائم المؤمنين ، فالإسلام لا يفترض أنهم سينهضون عزائمهم بأنفسهم أو يكونوا حلولا جديدة بقوتهم الخاصة .

وهو الله ، الذى يستدعى حبه حب الناس ، فحين يعرف هؤلاء فضل الله ورحمته ، يستسلمون لجلاله : يقودهم ويحكم قلوبهم ، فإن إراداتهم تستطيع أن تبين فى الحياة عن نفس قد كمل تنظيمها : انسجاما ، وثباتا ، وتكاملا ؟

خفى حنين

مدح ربيعة الراقى يزيد بن حاتم الأزدى وهو والى مصر فاستبطأه ربيعة ، فشخص إليه من مصر وقال :

أرانى ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم . فأرسل فى طلبه ، فلما دخل عليه لامه على ما قاله فيه ، وسأله هل قال غير ذلك البيت ؟ فقال ربيعة : لا والله ! فقال الأمير : لترجعن بخفى حنين مملوءة مالا . وأمره أن يخلع نعليه ، وملئت له مالا .

مكتبتنا العربية

المعاملات فى الشريعة الاسلامية
والقوانين الوضعية

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

نبدأ الآن بحثا جديدا موضوعه الالتزامات والعقود فى الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية .

هذا الموضوع له أهمية كبرى ، حيث إن مصر سنّت لها قانونا مدنيا حديثا استمدت أحكامه من القوانين الأجنبية معتقدة أن تلك القوانين الأجنبية كافية فى تحقيق ما تقتضيه ظروف البلاد من اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وغير ذلك . وزعم واضعو هذا القانون أنهم استمدوا بعض الأحكام من الشريعة الإسلامية ، ومعنى هذا عدم كفاية الشريعة الإسلامية لما تقتضيه ظروف الزمان والمكان ، مع أن الأمر عكس ما ذهبوا اليه . ولذا قام جماعة من كبار رجال القانون وألّفوا لجنة منهم ومن بعض علماء الأزهر لدراسة هذا الموضوع (كفاية الشريعة الإسلامية) ، فعملت نموذجا لمشروع قانون مدنى حديث استمدت جميع أحكامه من الشريعة الإسلامية ، فجاء متمشيا مع ما تقتضيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية الحديثة ، وقد كان هذا النموذج فى كتاب العقد ، لأن نظرية العقد هى الأساس لجميع المعاملات المدنية ، وإليها ترجع أحكام العقود الخاصة .

وقد (١) صادف اللجنة فى طريقها صعوبات ومشاق ، لأن كتب الفقه

---

(١) ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوه بإيجاز بما قامت به اللجنة من عمل ، وبيان ما قام به كل عضو منها ، لينال كل ذى حق حقه :

كانت تجتمع اللجنة أولا لتناقش الموضوع لتعرّف الفكرة القانونية ، وذلك بإشراف سعادة الدكتور صادق بك فهمى المستشار بمحكمة النقض والإبرام =

مكتبتنا العربية

الإسلامى لم تضع نظرية عامة كاملة للالتزامات والعقود (كما فى القوانين الوضعية وكتبها) : لذلك كانت ترجع اللجنة الى جميع أبواب الفقه وتستخلص القواعد العامة التى تنتظم جميع أنواع العقود الخاصة ، وذلك بعد بحث وتنقيب وتحليل على دقيق ، فجاء النموذج كاملا وافيا بالغرض ، ومصيبا للهدف ، وحاز رضاء كثير من رجال القانون والعلم .

= الوطنية ، ثم يقوم كل عضو بالبحث فى كتب فقه مذهبه عن الأحكام والنصوص الخاصة بالموضوع ، ثم تجتمع اللجنة ثانية للبحث والنقاش فى تلك النصوص والأحكام على ضوء الفكرة القانونية : وبعد الاتفاق والانتهاء الى رأى ، تحال الفكرة لصياغتها صياغة قانونية الى فضيلة الشيخ يس سويلم ، ثم تراجع معه ومع باقى الأعضاء بإشراف سعادة صادق بك فهمى . وقد استمر عمل اللجنة هكذا نحو المائتين والخمسين جلسة كانت كل جلسة تستغرق أكثر من أربع أو خمس ساعات متواليات . ولما أن تم النموذج أعيدت مراجعته بنفس الطريقة حتى أخذ وضعه النهائى . وكانت اللجنة مكونة من جميع مذاهب الفقه الإسلامى ، فكان عن المالكية فضيلة الشيخ يس سويلم الذى كان له القسط الأوفر فى هذا العمل ، وعاونه فى كثير من الأحيان بالبحث عن النصوص كل من فضيلتى الشيخ عبد القادر خليف والشيخ أحمد على . وكان عن الشافعية فضيلة الشيخ على البولاقى ، وشاركه فضيلة الشيخ إمام حسين وفضيلة الشيخ ابراهيم النجار . واقتصر عمل الشافعية على نحو النصف من هذا النموذج .

وكان عن الحنابلة فضيلة الشيخ على عبد المجيد ، وقد أبلى بلاء حسنا فى كثير من المسائل المعقدة التى برهنت على غزارة علمه . وكان قد قام فضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى بجزء كبير فى هذا العمل عند الابتداء فى عمل هذا النموذج . وكان يمثل الحنفية فضيلة الشيخ الطيب النجار الذى برهن بعمله هذا على غزارة مادته العلمية وحسن استنتاجه وبراعته فى البحث والنقاش ، وكنتُ أشاركه فى عمله (باعتبارى حنفى المذهب) بجانب ما كنت أقوم به من تحضير للمواد وتدوين للنصوص وترجمة الى اللغة العربية لما يحتاج اليه من أبحاث قانونية حيث كنت أتولى أيضا عمل السكرتارية الفنية العلمية .
=

مكتبتنا العربية

وقد طبع هذا النموذج طبعتين : إحداهما قامت بها نقابة المحامين الوطنيين ، والأخرى قامت بها جماعة اتحاد الهيئات الإسلامية ، ووزع ، ونفدت جميع نسخه . ونحن فى أبحاثنا هذه سنجعل هذا النموذج أساسا لنا فى مقالاتنا ، ونبيّن مصادر نصوصه ، مع مقارنة ذلك بالقوانين الوضعية ، خصوصا قانون مصر الحديث الذى سيبدأ فى تنفيذه فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٩ عند انتهاء أجل المحاكم المختلطة . وستكون مقالاتنا هذه موجزة ، لأن المقام لا يتسع للتفصيل .

= وكان سعادة الدكتور صادق بك نهمى روح اللجنة ، فباشتراكه وإشرافه ونقاشه وشرحه للأبحاث القانونية ونصحه وإرشاده ، تمكنت اللجنة من تحقيق ما ترمى إليه ، فكان هو العامل الأساسى لظهور هذا العمل الجليل الى الوجود . كما أنه هو الذى قام بعمل التمهيد لهذا النموذج الذى بيّن فيه الأسس العلمية والفنية لعلم القانون المقارن ، وما يجب اتخاذه لعمل تشريع جديد لمصر ولبلاد المسلمين كافة ، كما أبان بجلاء ووضوح تفوّق الشريعة الإسلامية على التشريعات الأخرى .

وقد كانت اللجنة على اتصال ببعض أعضاء الهيئة المدنية لمحكمة النقض والإبرام الوطنية عن طريق الدكتور صادق بك نهمى للاستنارة بعلمهم وأفكارهم ، ولا ننسى أن نذكر ما قام به سعادة مختار بك بخيت رئيس استئناف أسيوط سابقا من مساعدة قيمة وفضل ونصح وإرشاد لاشتراكه فى بعض المواد ، كما تذكر بالشكر الجزيل فضيلة الشيخ العتريس من هيئة كبار علماء الأزهر لما أبداه من اشتراك ومعاونة قيمة .

وكان يسود أعضاء اللجنة روح الإخلاص والمحبة والتفانى فى العمل حيث كان جل هدفهم هو إثبات كفاية الشريعة الإسلامية ، ووجوب العمل بها ، غير ناظرين إلى أى اعتبار آخر .

ونذكر بمزيد الشكر ما قام به فضيلة الشيخ حمودة غرابة من تصحيح التجارب ، ومراقبة الطبع والتوزيع بالاشتراك مع الدكتور صادق بك نهمى .

ولما أن تم طبع هذا النموذج جاء صورة رائعة لأحدث تشريع يتمشى مع ضرورات الزمان والمكان ، مضاهيا أحدث التشريعات إن لم يفقها صياغة وعلما وفنا . ويعتبر هذا النموذج هو المؤسس الأول لنظرية كاملة للعقد فى الفقه الإسلامى . وقد نفدت جميع نسخه ، إذ تهافت عليه الكثير من رجال العلم والقانون .

مكتبتنا العربية

والآن نبدأ بتعريف الالتزام :

لم تتعرض كتب الفقه الإسلامى لتعريف حقيقة الالتزام وماهيته ، وإنما ذكرت له أحكاما ، كما أن مؤلفات القوانين الوضعية لم تضع له تعريفاً خاصاً وصحيحا مبنيا على أسس ، لأنك إذا نظرت إلى تعريفات هذه المؤلفات ، خصوصاً فيما هو مدون باللغة العربية وجدت اضطرابا وعدم انضباط ، إذ تجد عبارتها مائعة غير منطقية ، وليست متمشية ومبنية على أسس علمية ، وذلك لعدم معرفة مؤلفى هذه المؤلفات للقواعد العلمية للتعريفات (القول الشارح) ، فاضطررنا إزاء ذلك أن نحاول بقدر طاقتنا وضع تعريف للالتزام يصح اعتباره مؤقتاً حتى يقوم البحث العلمى الصحيح لوضع تعريف علمى صحيح له .

الالتزام : الالتزام فى اللغة : مشتق من لزم الشىء يلزم لزوماً بمعنى ثبت ودام ، ومنه الزمته أى أثبته وأدمته ، ولزمه المال وجب عليه ، ولزمه الطلاق وجب حكمه وهو قطع الزوجية . وألزمته المال والعمل وغيره فالتزمه ، ولازمت الغريم ملازمة . ولزمته ألزمه أيضا : تعلقت به (انتهى من المصباح المنير) .

وبذلك يتضح أن الالتزام يفيد وجوب الشىء ، كما يفيد وجود علاقة ورابطة بين الملتزم والملتزم له . وإذن يمكننا تعريف الالتزام بأنه « وجوب الوفاء بأمر » . ثم إن سبب الوجوب قد يكون قولا أو فعلا أو كفا وامتناعا . والمراد بالفعل معناه الأعم ، فيشمل الكتابة والإشارة وغير ذلك من ظروف وأحوال تحف بها القرائن . وحكم الالتزام : وجوب الوفاء بما التزم به ، فإن امتنع الملتزم عن الوفاء نشأ للملتزم له حق إكراه وإجبار الملتزم على الوفاء بما التزم به . ووسيلة الإكراه هى القوة والسلطان اللتان يحتشاهما الملتزم الناكل . وقد يستوفى الملتزم له حقه بنفسه . وكان قديما يتولى الملتزم له بنفسه إجبار الناكل ، ولكن الأمور تطورت وأصبحت توجد الآن طرق رسمها القانون لإجبار الملتزم الناكل على تنفيذ ما التزم به .

وسائل الإكراه قديما وحديثا : قديما كانت السلطة التى يتمتع بها الدائن (الملتزَم له) ضد مدينه (الملتزِم) عبارة عن سلطان مطلق على شخص المدين ، فكان للدائن الذى يمتنع مدينه عن الوفاء بما التزم به أن يستولى على هذا المدين ويحتفظ به سجينا عنده ، أو يتصرف فيه رقيقا ، ببيع أو غيره ، أو يستخدمه لديه .

مكتبتنا العربية

بل قد ذهب حقه إلى أكثر من ذلك ، فكان له حق قتله كما يشاء ، ولو كان المدين غرماء متعددون جاز لهم قتله وتقطيع جثته وتوزيعها بينهم كل على حسب نصيبه . ثم تلطفت ونقصت هذه السلطة فألغى القتل ثم السجن ، وأصبح للدائن حق استخدام مدينه لمدة يستوفى بها الدائن حقه . ثم تطورت الأمور شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح حق الدائن فى القانون الفرنسى القديم قاصراً على طلب حبس المدين الذى لا يفى بدينه ، والحبس كان بسجون الحكومة . وهذا ما يسمى « بالإكراه البدنى » . وقد ألغى الإكراه البدنى فى فرنسا بالنسبة للديون المدنية والتجارية بقانون صدر فى أوائل منتصف القرن التاسع عشر . ولكن لا يزال هذا الإكراه قائما فى تحصيل الغرامات الناتجة من الجرائم الجنائية . والحال كذلك فى مصر . فالإكراه البدنى لا يكون إلا بالنسبة للغرامات الجنائية ، وكذلك بالنسبة للنفقات التى يحكم بها من المحاكم الشرعية . وفيما عدا هذا النطاق الضيق الذى يجوز فيه التنفيذ بالإكراه البدنى ضد المدين أصبحت سلطة الدائن قاصرة فى الوقت الحاضر على حق التنفيذ على أموال المدين دون التعرض لشخصه .

الإكراه البدنى فى الشريعة الإسلامية : أجازت الشريعة الغراء هذا النوع لضرورته ، ولكونه وسيلة ناجحة لإجبار المدين الناكل على الوفاء بما التزم به ، ولكن بشروط معينة ، هى أن يكون المدين ذا يسار وقدرة على الوفاء بما التزم به ، وأن يكون مماطلا ، وأن تقوم البينة على هذين الشرطين ، وأن يصدر أمر الحبس من القاضى ، وأن يكون الحبس فى سجون الحكومة .

ويلاحظ أن الحبس لا يعتبر إيفاء للدين ، وإنما هو وسيلة لإجبار المدين الناكل وإرغامه على الوفاء بما التزم به .

وقد انتقد بعض كبار رجال القانون بفرنسا إلغاء الإكراه البدنى فى الديون المدنية والتجارية نظرا لكثرة تحايل المدينين الناكلين على تهريب أموالهم بشتى الطرق والوسائل حتى لا يصل الدائن إلى حقه ، وتمنى الأخذ بقاعدة الشريعة الإسلامية . وإن الظروف ستجبر الناس يوما ما على الأخذ والعمل بالقاعدة الشرعية ، وإن غدا لناظره قريب ؟

مكتبتنا العربية

بَابُ الأَسْئِلَةِ وَالفَتَاوَى

التطوع للجهاد فى سبيل فلسطين

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ الكبير مفتى الديار المصرية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ما حكم الإسلام فى التطوع بالنفس والمال للجهاد فى سبيل فلسطين العربية ؟ وهل يعتبر المتطوع بنفسه مجاهدا ؟ وإذا قتل فى المعارك التى تدور هناك يعتبر شهيدا شرعا أم لا ؟ وما حكم من يحول دون ذلك أو يفتى بحرمة هذا العمل بحجة أن العرب باعوا أرضهم لليهود ولا يستحقون المساعدة ؟

أحمد محمد على الشراق
من بلدة حوض نجيح شرقية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

والجواب : أن الجهاد بالنفس أو المال لإنقاذ فلسطين واجب شرعا على القادرين من أهلها وأهل الدول الإسلامية التى تحاول الصهيونية اليهودية بقوة السلاح إقامة دولة يهودية بقطر من أعز أقطارها الإسلامية العربية ، وهو فلسطين ، لا لتملكها فحسب ، بل للسيطرة على دول الإسلام كافة والقضاء على عروبتها وحضارتها الإسلامية . ومن نكص عن القيام بهذا الواجب مع الاستطاعة ، أو خذل عنه ، كان آثما . غير أنه يجب الآن فى الجهاد بالنفس ، وقد تنوعت أساليب الحرب ، أن يخضع المجاهد للنظم التى تضعها دول الجامعة العربية للجهاد حتى يحقق النصر المأمول . والله المستعان .

مفتى الديار المصرية
حسنين محمد مخلوف

مكتبتنا العربية

تشابه مقاصد القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

قال الله تعالى فى الآية ٢٣ من سورة الزمر : « الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانىَ تقشعرّ منهُ جلودُ الذينَ يخشونَ ربهم » فوصف القرآن بأنه كتاب متشابه ، وجعل هذا صفة مدح له : وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد والقصص والمواعظ ، وما إلى هذا من الأنواع التى يشتمل عليها ، وتتكرر فى كل سورة من سوره ، وكلها أنواع متشابهة المقاصد ، متقاربة الأغراض ، لا تخرج عن الوظيفة الدينية للقرآن ، ولا تحيد عن الغاية الدينية التى نزل من أجلها ، لأنه نزل لتشريع العقائد والأحكام ، فيجب أن يقف عند حدودها ، وأن يكون كل ما فيه من أوامر ونواهٍ ، ووعد ووعيد ، وقصص ومواعظ ، وغيرها ، متصلا بها ، فلا يقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب أو غيرهما من العلوم ، لأنه لم ينزل لغرض من هذه الأغراض ، وإنما نزل للأغراض السابقة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحى ؛ أما هذه الأغراض العلمية فإنها تعرف بالعقل ، ولا تتوقف معرفتها على الوحى ، فلا يصح أن يخلط بينها وبين الأغراض السابقة فى كتاب دينى كالقرآن أو غيره .

وقد حددت الوظيفة الدينية للقرآن فى فاتحته ، وهى أول سورة منه ، فقال تعالى فيها « بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، الحمدُ للهِ ربِ العالمينَ ، الرحمٰنِ الرحيمِ ، مالكِ يومِ الدّينِ ، إيّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهمْ غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضّالّينَ » .

مكتبتنا العربية

وهو فى هذا يبين أنه يراد من القرآن الهداية إلى صراط مستقيم ، وهو الدين الذى بعث به النبى صلى الله عليه وسلم . والكتاب يقرأ من فاتحته ، فهى التى تحدد المقصود منه ، وتبين الغرض الذى يريد تحقيقه . وقد توالت سور القرآن بعد هذه الفاتحة ، فسارت فى هذا الغرض الذى حُدّد فيها ، ولم تحد سورة منها عنه : وبهذا تشابهت سوره فى أغراضها ومقاصدها ، كما تشابهت أوامره ونواهيه وما إليها مما اشتمل عليه .

فلم تُعْنَ سورة من سور القرآن بتدوين تاريخ الخلق مثلا ، أو تاريخ شعب من الشعوب ، أو تاريخ رسول من الرسل ، فتستنّ فى هذا أسلوباً تاريخياً يقصد منه الاطلاع ، ومعرفة الأخبار ، ويراد منه الكشف عما يجهله الناس منها : لأن هذا ليس فى شىء من وظيفة الكتب السماوية ، ولا يتوقف أمره على تنزيل سماوى ، حتى ينزل به وحى من عند الله تعالى ، وإنما هو أمر فى متناول البشر ، يصلون اليه بعقولهم ، ويعرفونه باجتهادهم وبحثهم .

وقد يقال إن القرآن قد جاء فيه كثير من أخبار الماضين ، وقد نزلت فيه سور تكاد تكون مقصورة على أخبار رسول من الرسل ، ومن هذا سورة يوسف وسورة طه ، فالأولى مقصورة على أخبار يوسف عليه السلام ، والثانية تكاد تكون مقصورة على أخبار موسى عليه السلام .

والجواب أن القرآن لا يقص علينا أخبار الماضين كما يقصها المؤرخون ، لا يريدون منها إلا إفادة العلم بها ، وكشف المجهول منها ، وإنما يقصها ليستخلص منها العظة الدينية التى تدخل فى وظيفته ، وليكون منها تذكرة نافعة لنا فى دنيانا وأخرانا ، فلا يقص منها إلا الاخبار التى يمكن أن يستخلص هذا منها ، فيختارها اختيارا دون غيرها من الأخبار التى لا يقصد منها إلا الفائدة الإخبارية التاريخية . وهنا تختلف وظيفة الكتاب المنزل عن الكتاب التاريخى ، فالكتاب المنزل إذا ذكر أخبار قوم من الماضين يذكرها نتفا من هنا ونتفا من هناك ، فيختارها اختيارا يوافق غايته الدينية ، أما الكتاب التاريخى فيذكرها كاملة غير منقوصة ، ويرتبها ترتيبا يوافق ترتيبها فى حوادث الزمن .

مكتبتنا العربية

ويندر أن يقع فى القرآن قصة ترتب حوادثها ذلك الترتيب الزمنى ، ولا يكاد هذا يجاوز عدد أصابع اليد من السور ، ومن هذا قصة يوسف عليه السلام ، فإنها مرتبة ترتيبا زمنيا يبتدىء من صغره الى أن وصل أمره فى مصر إلى ماوصل إليه ، ولكنها لا يذكر فيها مع هذا إلا مايدخل فى باب الْعِظة والْعِبرة ، فيحذف فيها ما عداه مما يدخل فى باب التاريخ المحض ، ولا يقصد منه إلا المعرفة والاطلاع ، لتوسيع الثقافة التاريخية ، وزيادة الثروة العلمية .

ولهذا كله امتاز القرآن من بين الكتب بأنه الكتاب الذى يقرأ ويتلى ، وتكرر تلاوته وقراءته ، فلا يمل ذلك قارئه وتاليه ، لأنه يتلوه للعظة والتذكرة ، والإنسان كثيرا ما يعتريه النسيان ، وتعْتَوِرُه الغفلة ، فيحتاج الى تكرير ما يعظه ويذكره ، لتستمر له أسباب العظة والتذكير ، وتتهيأ له وسائل السعادة فى دنياه وأخراه ، لأنه يكرر ذكر خالقه وما له عليه من حقوق ، وهى حقوق ترجع الى تهيئة وسائل تلك السعادة له ، ليعيش فى الدنيا رغيد العيش ، محبا لكل من تربطه به صلة قرابة أو دين أو وطن أو إنسانية أو حيوانية ، وبهذا ينال السعادة فى أخراه كما نالها فى دنياه ، لأن الدنيا قنطرة الآخرة .

ولهذا كله امتاز القرآن بهذا الاسم من بين الكتب ، لأن القرآن مصدر قرأ يقرأ قرءا وقراءة وقرآنا ، فتعرف حقيقته من عنوانه ، وتدرك وظيفته من اسمه . وقديما قالوا : إن الكتاب يقرأ من عنوانه .

فإذا أردنا أن نوازن فيما امتاز القرآن به من ذلك كله وبين التوراة الموجودة الآن ، وجدنا أن التوراة تشتمل على خمسة أسفار :

١ — سفر التكوين ، وهو يشتمل على التاريخ القديم ، من بدء الخلق الى موت يوسف عليه السلام .

٢ — سفر الخروج ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر ، كما يشتمل على كثير من المسائل التشريعية والطقوس الدينية .

٣ — سفر اللاويين ، وهو يشتمل على الطقوس الدينية الخاصة بتقديم القرابين ، وعلى طقوس الكهان من أبناء هارون .

مكتبتنا العربية

٤ — سفر العدد ، وهو يشتمل على تاريخ خروج بنى إسرائيل من سيناء الى شرق الأردن ، وعلى بعض الرسوم الخاصة بالطقوس والعبادات .

٥ — سفر التثنية ، ويراد منه تثنية الشريعة أى إعادتها مرة ثانية لتطهير طقوسها .

وإذا تركنا التوراة الى الأناجيل الأربعة الموجودة الآن ، نجدها تمضى فى أسلوب التوراة ، وهى : إنجيل متى ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا ؛ والأربعة لا يقصد منها إلا تدوين تاريخ المسيح عليه السلام ، فتذكر فيها سيرته الى نهايتها ، وتدون فيها أفعاله وأقواله .

ولا شك أن التوراة والأناجيل تجمع فى هذا بين وظيفة المشرع والمؤرخ ، وهما وظيفتان لا تتشابهان بل تتباينان ، لأن الوظيفة الأولى إلهية ، والوظيفة الثانية بشرية ، ولها وسائلها التى تعتمد عليها من المشاهدة والرواية ، بخلاف وظيفة التشريع ، فإنها تعتمد على الوحى من الله تعالى ؟

المماطلة

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

وقال عمر بن الحارث : كانوا يفعلون ولا يقولون ، ثم صاروا يقولون ويفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون .

وقال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان فى مواعد وعدها إياه فمطله بها : نحن الى الفعل احوج منا الى القول ، وأنت بالإنجاز أولى منك من المطل ، واعلم أنك لاتستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد ، واستمامك المعروف .

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشى لخالد بن ديسم والى الرى :

أخالد إن الرى قد أجحفت بنا ... وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد أطمعتنا منك يوما سحابة ... أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فييئس طامعا ... ولا ماؤها يأتى فيروى عطاشها

وقال حكيم : خلف الوعد ألام من البخل ، لأن من لم يفعل المعروف لزمه ذم اللؤم وحده ، ومن وعد وأخلف لزم ثلاث مذمات : مذمة اللؤم ، ومذمة الخلف ، ومذمة الكذب .

مكتبتنا العربية

الرضا بالقضاء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على رفاعى

المفتش بادارة الوعظ

ينبغى أن يعلم أن الرضا عن الله فى كل ما يفعله بالعبد ليس معناه ترك العبد للأسباب الموصلة الى ما يريده ؛ بل الأخذ فى الأسباب من جملة الرضا عن الله . فإنه سبحانه هو الذى أمر بالعمل ومزاولة الأسباب ، مع الجد والنشاط وأخذ الحيطة والحذر ؛ فإن وصل المرء الى مطلوبه فذلك من توفيق الله وإعانته ، وإن لم يصل فليسلم بالقضاء ، وليعلم أن الخيرة فيما اختار له من هو أعلم بمصالحه من نفسه التى بين جنبيه ، وهو العليم الخبير . وقد يظن العبد الخير فى شىء وهو شر محض فى الواقع ونفس الأمر ، كما يظن الشر فى شىء وفيه كل الخير . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ولذلك كان المؤمن القوى ، وهو العامل بأوامر دينه الواثق من أن ربه لا يفعل إلا مافيه مصلحته ، خيرا وأحب الى الله من المؤمن الضعيف الذى يجزع من الحوادث تنزل بساحته فتهتز أركان عقيدته .

فترى المؤمن القوى إذا نزل به مهم أخذ فى مدافعته مستعينا بحول الله وقوته ؛ فإن عجز عن دفعه ولم يستطع له ردا ، لم يجلس جلسة الحزين الذى يقول : لو أنى فعلت كذا لنجوت ، ولو فعلت كذا لم يحصل كذا ؛ ولكنه ينسى مافات ، ويرجع الى إيمانه وثقته بالله ، فيقول : قدر الله وما شاء فعل .

وقد جرت عادة الله فى خلقه أن جعل منهم سعداء وأشقياء . ترى ذلك فى الجمادات والنباتات والحيوان والإنسان ؛ فهذا حجر يضرب بالفأس ليكسر ، وآخر يتمنى الملوك أن يزينوا به أيديهم ؛ وهذا نبات تشتاق النفس لتشتم عبيقه ، وهذا آخر يتحاشى المرء ريحه ؛ وهذا حصان يفق على خدمته مئات الأ

مكتبتنا العربية

ويوضع عليه من باهى الحلل ما يكون زينة للناظرين ، وترى حصانا آخر يجر عربة محملة بالأثقال ينوء به حملها ، فوق ما يناله من أذى سائقه ؛ بل إن فى الكلاب ما يأكل مع العظماء ، ويتحلى بسلاسل الذهب ، ويقبّل فى فيه ، ومنها ما يضرب بالحجارة ويهلك جوعا .

وإذا انتقلت الى من كرمه الله على عموم مخلوقاته وهو الإنسان ، رأيت الغنى والفقير ، والصحيح والسقيم ، والمبتلى والمعافى ، والعقيم ومن له أولاد ، ومن ينعم بوالديه ومن فقد أحدهما أو كليهما ؛ بل رأيت الذكى الفطن وقد ضرب الفقر قبته عليه ، والغبى الجاهل والغنى يسير بين يديه .

فعل تاهت العقول فيه ، وتحيرت منه الألباب . ولو تأمل المرء فى هذا كله لعلم أن لله فى ذلك حكما وشئونا ، مرجعها نظام الكون وحسن التدبير للعباد .

فلو خلقوا جميعا أغنياء لما وجد التعاون ، وقد شاء الله أن يجعل بعضهم لبعض سخريا ، ليقوم الفقير بمعاونة الغنى فى تجارته وزراعته ، ويقوم الغنى للفقير بما يسد خلته ويدفع عنه ألم الفاقة .

ولو وجد الناس جميعا أصحاء لما عرفوا مقدار نعمة الصحة . ومن الحكم الطبية فى هذا « الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » . وقل مثل ذلك فى كل الفروق الموجودة بين بنى الإنسان . ولو كشف الغطاء عن المرء ، لعلم أن ما هو فيه خير له مما يتطلع اليه ويتمنى حصوله لنفسه ؛ إذ الذى حاطه برعايته وهو فى بطن أمه ، ورباه طفلا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وهو أعلم بما فيه خيره ومصلحته ؛ هو الذى وضعه هذا الوضع .

فيجب التسليم له والرضا عنه فى كل ما يفعله به : والرضا فوق الصبر ، فقد تكره الشىء ينزل بك ولكنك تتصبر بالصبر فتنال أجر الصابرين .

ولكن الرضا أن ترى كل ما يفعله بك جميلا : وأن من أحبه مولاه ابتلاه ليظهر للناس مكنون سره ، وهل هو من المؤمنين الراضين عن الله ، أو من المؤمنين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . وليثبت ذلك فى نفسك ويقر فى قلبك . استمع معى الى قول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه » يزيدك بيانا أن الشكوى للمخلوقين

مكتبتنا العربية

من الخالق سبحانه وتعالى ، وإظهار السخط وعدم الرضا عن فعل الله بالعبد ، يخرج بالعبد من حظيرة المؤمنين الصادقين . ترى ذلك واضحا فى قول الله تعالى فى الحديث القدسى « إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى فليطلب ربا سواى » .

والصبر على البلاء والرضا بالقضاء هو ثمرة الإيمان ونتيجته . إذ من وقر فى نفسه أن له ربا كريما عليما بما ينفعه وبما يضره ، وأنه أرحم به من الوالدة بولدها ، أيقن أن ما هو فيه خير له مما يتشوف اليه ، وأن من الخرق والجهالة أن يظهر السخط ويشكو الخالق سبحانه لعبيده . بل عليه أن يلجأ الى ربه فى كل ما ينزل به ، كما فعل يعقوب النبى عليه السلام حين فقد ولديه : فقد قال كما يحدثنا القرآن الكريم : « إنما أشكو بثى وحزنى الى الله » .

ويعجبنى فى هذا المقام أن أذكر لك ما قرأته فى بعض الكتب ، من أن الله سبحانه وتعالى قال : يا يعقوب أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا يا رب ، فقال : لأنك قلت لإخوته « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى له ؟ ولم خفت من غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى ورعايتى له ؟ أتدرى يا يعقوب لم رددت عليك ولدك ؟ قال : لا يا رب ، قال : لأنك قلت « عسى الله أن يأتينى بهم جميعا » .

فانظر أيها المؤمن بنور قلبك إلى هذه المحاورة الظريفة ، ترَ أن ربك الغنى يحب أن تلجأ اليه فى كل شأنك ، وتكل اليه جميع أمرك .

ولله در من أنشد عن الله سبحانه « سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منك » .

وقد أسلفت لك أيها القارىء الكريم أن الرضا عن الله فى كل ما ينزل بك هو ثمرة الإيمان ، بل هو الإيمان على التحقيق .

وأحب أن تستمع إلى السؤال الآتى وجوابه لتزداد إيمانا وإشراقا ونورا ، حتى ينشرح صدرك وتستريح نفسك ، ويطمئن قلبك لكل ما يفعل الله بك :

سأل النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقال « ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نصبر عند البلاء ، ونشكر عند الرخاء

مكتبتنا العربية

ونرضى بمواقع القضاء . فقال صلى الله عليه وسلم : « مؤمنون ورب الكعبة » . وفى رواية أخرى قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » .

ويأخذ بمجامع القلوب ما يروى فى بعض الأحاديث القدسية من قول الله تعالى « إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى . فليطلب ربا سواى » .

قد يقع أمام نظرك أمر أنت تنكره ، ولكنه لو كشف عنك الغطاء لرأيت جميل فعل الله فيما أنكرت .

فقد جرى الإنسان على أن يقيس حسن الأشياء وقبحها على عقله المحدود ، وفكره المكدود . وأين عقلك ممن لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ وسع كل شىء علما ، وهو السميع البصير . ولتدرك ذلك وتفهمه ، أقص عليك من كتاب الأربعين (للإمام الغزالى) القصة الآتية ، وهى فيما أحسب تنير أمامك طريق الرضا والتسليم لله رب العالمين .

روى أن نبيا كان يتعبد فى جبل ، وكان بالقرب منه عين ماء ، فاجتاز بها فارس وشرب ، ونسى عندها صرة فيها ألف دينار ، وجاء آخر فأخذ الصرة ، ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب ، فشرب واستلقى ليستريح ، فرجع الفارس فى طلب الصرة فلم يرها ، فأخذ الفقير فطالبه وعذبه فلم يجد عنده ، فقتله . فقال النبى : إلهى ما هذا ؟ أخذ الصرة ظالم آخر ، وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله ! . فأوحى الله إليه اشتغل بعبادتك ، فليس معرفة أسرار الملك من شأنك . إن هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص ، وإن أبا الفارس قد كان أخذ ألف دينار من مال آخذ الصرة فرددته إليه من تركته .

وبعد ، فعقيدة القضاء والقدر ، تدعو الى الشجاعة والتضحية والاستبسال فى الدفاع عن الدين والوطن . ويرحم الله القائل : **وكل شىء بقضاء وقدر ، وكل مقدور فما منه مفر . ؟**

مكتبتنا العربية

لا ينسى ، تبدو كأنها قصة خيالية للأطفال ، تظهر فيها أعمق المعانى ، وتتناول مباشرة وبصراحة مأساة حياتنا . وما هو معنى الحياة إذا كانت الشيخوخة والموت المحتوم فى انتظارنا ! . ويعتقد بوذيو الشمال أن هذه الأسطورة جزء من حياة جوتامو نفسه . أما أهل الجنوب فيعتقدون انها من رواية جوتامو عن أحد البوذوات الأربع والعشرين الذين عاشوا قبله . وعلى أية حال فإن هذه الأسطورة تبين لنا الدوافع الحقيقية لأبحاث وتعاليم جوتامو ، إن لم يكن عن طريق ترجمة حياته ، فعن الطريق البسيكولوجى .

ونجد فى محاولة البحث عن الخلاص من الألم والموت ، نقطة الخلاف الثانية مع كنفشيوس ، الذى كان يرفض حتى الكلام عن الموت .

وتنص علينا الأساطير أن جوتامو لم يعرض المشكلة للبحث فحسب ، ولكنه استطاع أن يجد لها حلا نهائيا . ونعرف من سيرته أنه اتبع طريقين للبحث عن الحقيقة : طريق خطىء ، وطريق صحيح . وحاول جوتامو أول الأمر أن يتبع سبل العقيدة المتوارثة والزهد كما كانت العادة فى الهند آنذاك . وأمضى جوتامو ست سنين طوالا يروض نفسه على أقسى أنواع الزهد والتقشف ، المصحوب بأحر العبادات ، مما كاد يودى بحياته جوعا . وتحول جسمه الى كومة من العظام والجلد الناشف حتى شارف الموت ، ومع ذلك فإن هذه الرياضة الجسمانية لم تجعل روحه يصل الى الحقيقة .

ومن هنا عرف جوتامو أن هذا الطريق خداع كاذب ، فأقلع عن صومه المخيف ، واختار لنفسه طريقاً آخر : هو طريق التأمل العميق والتفكير النفسى . وكان ترك هذه العقائد المتوارثة لا يقل أهمية عن هجره عائلته وبيت آبائه وأجداده ، لأن ذلك كان يعنى نقض الدين القديم ومعاداة « براهما » وغيره من الآلهة القدماء . ولا يوجد عند البوذية — مثلها فى ذلك مثل الكنفشيوسية — تفكير نظرى عن كائنات فوق الطبيعة ، لا بالآلهة ولا الإله . فهم جوتامو أن مشكلة الحياة تتمثل فى الروح الانسانى ، فهو وحده الذى يستطيع أن يشفى غليلنا . ويروى لنا قانون الشمال أنه فى هذا اليوم الجديد ووسط عاصفة تزأر ، فى ليلة حالكة الظلام ، كان جوتامو يجلس تحت الشجرة المقدسة غارقا فى تأملاته

مكتبتنا العربية

إذ مر بمراحل « الحكمة الأربعة » كلها ، ووصل أعلى وآخر المعارف ، وهكذا صار « المستيقظ » أو « العارف » أو « البوذا » . ولكن قانون الجنوب يقص هذه القصة نفسها مع شيء من التغيير يجعلها أقرب إلى الحقيقة : كانت التأملات بين الحقول النضيرة والأشجار المزهرة ، ولم يكن وصوله للحقيقة فى مثل هذا الوقت القصير ، بل لقد استمر شهوراً أو سنين .

ويعتقد أن جوتامو قد وجد طريق الخلاص من كل آلام الحياة ، من الشيخوخة ومن الموت . ولكن ما هو هذا الطريق ؟ . إن نحن قرأنا كتب البوذية بدهشنا أننا لا نجد حلا واحداً فقط ، بل نجد حلين على الأقل : أحدهما تراه البوذية النظرية المتوارثة هو الحل الصحيح ، وهو أن الألم والحياة توأمان ، وعلى ذلك فان منبع الألم إنما يوجد فى تعلقنا بالحياة ، وفى الظمأ اللاشعورى المظلم غير العقلى أى الرغبة فى الوجود ، فيكون التخلص من الألم هو بالتغلب على هذا الظمأ وتحطيم القيود التى تربطنا بالحياة ووأد الرغبة فى الوجود . ويمتنع الموت فى حالة واحدة هى ألا نولد من جديد . فالنعيم الأكبر هو : انحلال إلى لا شيء ، الاختفاء الأبدى ، حالة النرفانا ، دون ولادة جديدة ، ومن ثم دون موت آخر .

وهذا النظام من نظم التفكير الذى يبدو فى « الحقائق الأربعة السامية » يمثل أبعد أنواع التشاؤم فى فهم الحياة البشرية ، ويمثل ذروة اليأس وخيبة الأمل الإنسانى . وعلينا أن نلاحظ أن البوذية تفوق الفلسفة الأوربية فى هذا المضمار . ويكفى أن نقرأ النصوص التى تبين نكران الحياة ، لنتحقق قوتها الغلابة التى لا تقاوم . وإن الإنسان ليقف حائرا مبهور الأنفاس أمام اليأس الكلى المدمر الذى يشيع فى تلك النصوص ، يقف حائرا إن هو لم يجد فيها ترياقا لهذا السم الروحانى القتال : فى نصوص أخرى لجوتامو بل فى النص الواحد يتبين الفرد خطوطا من النور تنحسر عن فهم آخر للعالم ، ليس هو النكران ، بل هو تأكيد الحياة ، تقدير أعلى وعناية أكبر بالحياة ، ليست هى الحياة الإنسانية فحسب ، بل وحياة الكائنات الأخرى أيضا . ويفسر لنا هذا الفهم « المتعارض » « الأشياء الثمانية فى الطريق القويم » و « النظريات الأخلاقية العشر » [1] .

---

(١) خطب جوتامو

مكتبتنا العربية

وقد يسأل الفرد مندهشاً : أىّ هذين المفهمين للحياة هو الأصح ؟ ولن نجد جوابا شافيا لهذا السؤال فى النصوص نفسها . فالذى فى هذه النصوص هو التحذير من الفهم الخاطىء . وفى أحد هذه الخطب الجميلة مثّل جوتامو تعاليمه بثعبان ، فإذا ما قابل صياد الثعبان وأمسك به من جسمه أو من ذنبه ، فإن الثعبان سيقف ويلدغ صائده فيموت أو يقاسى أشد الآلام ، ، ولماذا ؟ لأنه أمسك بالثعبان بطريقة مخطئة ، . وقد يقابل الثعبان صائد آخر فيمسكه بعصا خاصة تضغط على رأسه وتجبره على البقاء على الأرض ، فلا يستطيع الثعبان أن يلدغ صائده ، فليس يخاف الموت أو الألم ، ولماذا ؟ لأنه أمسك بالثعبان بطريقة صحيحة ، . وهنا يعترضنا سؤال من أهم الأسئلة فى التاريخ الإنسانى : هل أخذت البوذية النظرية المتوارثة نظرية جوتامو أخذاً صحيحا ؟ إن فتور البوذية الحالية المظلم الذى حل محل عظمة ذيوعها السابقة ، يضطرنا الى الشك الجدى فيها . ولندع هذا السؤال الى حين .

كما نحن

الرأى العصرى

الجلال الحر والحسب أين والاحسان يُغتصب !!!
نحن فى عصر شمائله جُل ما تلهو به الشغب
الهدى فى حبه خفَر والحجا فى طوعه صخَب
عزت الرحمى فلا أنَف يعطف المولى ولا أدب
عزة السامى برقته حين ساد العود لا الحطب

* * *

هذه الآراء لينة دون رأى الحر تُنتخب
شر ما فى الرأى من ترف أنه كالحسن يُستلب
حسب خطّاء على شره أمل فتانه عجب
ضل رأى ظل يعكسه عَسجد الشارين والرتب
ويلتا للحق ساحرة كعيون الغيد يَنتقب

« السيد »

مكتبتنا العربية

دراسة جديدة فى البلاغة العربية :

أسرار الفصل والوصل

بين المفردات والجمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد سلمو
المدرس بالأزهر

أحكام المفردات

(أ) الاتحاد فى المفردات :

١ — الفاعل : مثل قام محمد : الصلة مستفادة من لفظ قام ، ولفظ محمد جاء لبيان فاعل ذلك القيام ؛ فالصلة فى اللفظين واحدة : اللفظ الأول يفهمها ، والثانى يفهم فاعلها والمتصف بها .

وما قيل فى ذلك يقال فى المفعول والظرف .

٢ — المبتدأ والخبر : مثل محمد قائم : قائم تفيد الصلة ، ومحمد هو الموصوف بتلك الصلة : فالمسألة هنا كما تقدم .

نعت الخبر أو الخبر المتعدد :

إذا قيل : محمد شارب ماش فليس معنا فى : شارب ماش ، إلا صلة واحدة هى الإخبار بمجموع هذه الصفات ، أو بعبارة أخرى : الخبر هو الكلمة الأولى وكل كلمة بعدها صفة لما قبلها . وكان المراد اتصاف المبتدأ بهذه الأوصاف دفعة واحدة . ولا يشكل علينا أن ننطق مرة أخرى ، فنقول : محمد شارب وماش فإنا فى هذه المرة لم نراع أن ماش صفة لشارب ، وإنما راعينا أن نخبر مرة

مكتبتنا العربية

بشارب ، ثم نخبر بخبر آخر وهو ماش . وكان المراد تكرر الصلة وهى الإخبار ، وصح حينئذ أن يكون وقت شربه غير وقت مشيه .

يدلنا على هذا قولهم ، « الرمان حلو حامض » ، فلا يصح ذكر الواو ، لأنه لا يصح اعتبار تفرقهما . فالمراد أن الطعمين ممتزجان ؛ فأنتج ذلك طعما جديدا وهو المزوزة ، فلا بد من اعتبار حامض صفة لحلو حتى تمتزج الصفتان .

وجاءت الواو فى قوله تعالى : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » لأنه تعالى راعى أن مظهر أوّليته ليس هو مظهر آخريته ، ومظهر كونه ظاهرا ليس هو مظهر كونه باطنا ، فلو لم يعطف لكان الآخر صفة للأول ، والباطن صفة للظاهر ، فينشأ عن ذلك اتحاد المظهر ، وليس هو المراد .

ومثل هذا وإن كان الاتحاد والتكرار فى النعت لا الخبر ، قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » . فانظر كيف راعى سبحانه وتعالى الدقة التامة فى تعبيره ، فحذف حرف العطف فى الألفاظ الواقعة على ذات واحدة للدلالة على اتحاد الوصف بمدلولها ، وأن الزوجات المسلمات ليست غير الزوجات المؤمنات ، وهكذا الى آخر الصفات ، وأن المراد الوصف بها كلها دفعة واحدة ، كما أخبرنا بحلو وحامض دفعة واحدة : فحذفُ حرف العطف يدل على اتحاد الوصف .

وجاء بالواو بين الصفتين اللتين لا يمكن اجتماعهما فى ذات واحدة للدلالة على تعدد الوصف : فإن الثيب لا يمكن أن تكون بكرا ؛ ولذلك جاء بالواو لئلا تكون أبكار صفة لثيبات ، فينشأ عن ذلك الاتحاد كما فى الألفاظ المتقدمة ، فكأنه قال : أزواجا ثيبات وأزواجا آخرى أبكارا . فتعدد الوصف وتكراره مرة بثيبات وأخرى بأبكار هو التكرار المقصود .

وإذا تتبعت بقية المتحدات لا تجدها إلا كذلك : الصلة واحدة لم تتكرر ، وهذه الألفاظ اللاحقة لم تجىء إلا لبيان الحدث أو الذات .

مكتبتنا العربية

٣ — بيان الحدث :

المفعول المطلق : مثل ضربت محمدا ضرباً . فعند ما تقول : ضربت، احتمل ذلك الحقيقة والمجاز ، فتجيء ضرباً لتبين أنه حقيقة وليس فيه تجوز ، فلم يفد اللفظ الثانى ضرباً جديداً ، وإنما جاء ليشرح ويوضح المراد من اللفظ الأول : وكما يقال فى هذا يقال فى ضربته مرتين ، الى آخر أنواع المفعول المطلق .

المفعول لأجله : مثل : قمت إجلالا لك : الصلة هنا هى القيام ، تفهم من اللفظ الأول بمنطوقه ، ومن الثانى بطريق التلازم من باب ذكر السبب وإرادة المسبب . وسنعود الى مثل ذلك فى « وما أبرىء نفسى » الخ .

٤ — بيان الذات :

يكون ببيان النوع ، وذلك فى التمييز .

وهكذا تجد فى كل التوابع تتمة لمتبوعاتها ، ولا تفيد تكرر الصلة ، والحال كالنعت .

(ب) التكرار فى المفردات :

تقدم تعريف التكرار والتمثيل له ، غير أنى أنبه هنا الى أن واو المفعول معه كواو العطف تدل على تكرار الحكم ؛ فإن قلت : سرت والنيل ، فالمعنى : سرت مصاحبا النيل ؛ فهنا تعدد الحكم على معنى المفاعلة ، فتحققت من جانبك بالتزامه حين سيرك ومن جانبه بامتداده .

أحكام الجمل

العبرة بالصلة حذفاً للواو وذكراً لها ، ولا عبرة كما ذكرنا أولا بالخبرية أو الإنشائية ؛ فإذا كانت الصلة واحدة حذفنا حرف العطف ولو اتحدا خبراً وإنشاء ؛ وإذا كانت متكررة عطفنا ولو اختلفا خبراً وإنشاء .

وانظر كيف أجاز النحويون عطف الخبر على الإنشاء ومنعه البلاغيون ، وأرى أن من العبث أن يوجد رأى لأهل اللغة يستند على الوارد ، ورأى آخر يخالفه لأهل

مكتبتنا العربية

البلاغة لا يستند إلا على مجرد قواعد كان يجب أن تخضع للوارد ، لا أن يخالف الوارد من أجلها . وهل يرد كلام فى القرآن وفى فصيح القول ثم تحكم البلاغة بخلافه ؟ إذن فأى بلاغة هذه ؟ ! .

فقد ورد : حسبى الله ونعم الوكيل ، وقوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وجوز سيبويه : هذا زيد ومَن عمرو ؟ ، وإذا قلت : اسمع يا فلان ، ذهب على ، وأحضرُ الكتاب ، فقد عطفت الإنشاء على الخبر ، لأنهما اشتركا فى طلب السمع والالتفات اليهما . ولا يعترض بأن المسموع هو اللفظ ، واللفظ من حيث هو لا يحمل معنى الإنشائية والخبرية ، إذ لا يعقل أن يراد اللفظ وحده خاليا من معناه ، بل إن اللفظ لم يؤت به إلا لما يحمله من معنى ، فهما جملتان اشتركتا فى أن المتكلم يوجههما إلى المخاطب فتتلقاهما الأذن صوتا ، والذهن معنى .

الاتحاد فى الجمل :

ما يقال فى المفرد من تعداد الأنواع فيه ، يقال فى الجملة التى تحل محل المفرد كالجملة الخبرية الخ .

ثم علينا أن نأتى بأمثلة لجميع الأنواع من كمال الانقطاع الخ ونشرح اندراجها فى القاعدة الجديدة ، وقبل أن نشرع فى ذلك نشير إلى أن السبب لعدم تنبههم إلى قاعدتنا هو أنهم لم يراعوا الدقة التامة فى الفروق بين التعبيرات وما يترتب على حذف حرف أو ذكره من اختلاف فى المعنى كما سيأتى فى شرح « وما أبرىء نفسى » الخ ، ولم يتنبهوا إلى أن الجملتين المتجاورتين فيما ظنوه مختلفاً من هذه الأمثلة الآتية ترميان إلى هدف ومعنى واحد ، إحداهما بطريق الصراحة والأخرى بطريق التأويل ، ولكنهم اكتفوا بظاهر اللفظ ووجدوه مختلفاً خبراً وإنشاء ، فذهبوا إلى ما ذهبوا إليه مما حاد بهم عن الصواب . والحقيقة أن فى كلا المتجاورين معنى واحدا يفيده اللفظ الأول فى شىء من العموم ، ويفيده الثانى مخصصاً ببعض الأوصاف ، وإن كان ذلك كما ذكرنا بطريق التأويل والحذف ؟

« يتبع »

مكتبتنا العربية

أبو طالب بن عبد المطلب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

رجل من أكرم الرجال، وأقواهم عزيمة، وأصلبهم شكيمة، وأنفذهم مضاء، وأشدهم ذكاء، وأبعدهم همة، وألمعهم حكمة.

آزر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بدء دعوته، ووقف الى جانبه إبان محنته، لم تلن قناته، ولم يتزلزل ثباته، ولم يُضعف من نصرته إجماع العرب على حربه وإطباقهم على مقاطعته.

كان أبوه عبد المطلب راجح العقل، سديد الفكر، ناضج الرأى، شديد المهابة، تخشاه قريش وتعظمه، وكان يفرش له حول الكعبة، فيجلس ويجتمع إليه رؤساء قريش، ولا يستطيع أحد أن يجلس على فراشه أو يطأه بقدمه.

وفد مع قومه على سيف بن ذى يزن، فكان المقدم فيهم، الناطق بلسانهم، وخطب بين يديه خطبة بليغة فأعجب به حين تكلم، وقال له: أيهم أنت؟ قال عبد المطلب بن هاشم. قال ابن أختنا (١)؟ قال: نعم، فأدناه وقربه وأقبل عليه وعلى القوم وقال: مرحبا وأهلا، وناقة ورحلا، وملكا ربحلا، يعطى عطاء جزلا؛ قد سمعنا مقالتكم، وعرفنا قرابتكم، فلكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا رجعتم». ثم وهب لهم ولعبد المطلب هبات جزلة.

وكان عبد المطلب كذلك شديد الإيمان بالله، عظيم الثقة به، عادلا منصفا، يكره الظلم والجور، ويمقت الطغيان والعدوان، ويأمر أولاده بالعدل وترك البغى، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة، الى أن هلك رجل من أهل الشام تسامع الناس بظلمه وبغيه ولم يروا مظهرا من مظاهر الانتقام لحقه فى دنياه، فقيل

---

(١) كانت أم عبد المطلب يمانية.

مكتبتنا العربية

فى ذلك لعبد المطلب ، ففكر وقال : والله إن وراء هـذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .

ولما قدم أبرهة الحبشى بجيشه وفيلته لهدم الكعبة ، تخوف الناس واضطرب الجميع ، وملكهم الوجل والهلع . ولكن عبد المطلب ظل ساكن النفس رابط الجأش . يتمثل صدق إيمانه وشدة ثقته بربه فى قوله وقد أمسك بباب الكعبة :

لا هُمّ إن المرء يمـــنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
جروا جموع عيالهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وقبْـــلتنا فأمر ما بدالك

وقد قابل أبرهة بعد ذلك وتقدم إليه بعظمة الرؤساء وشهامة الرجال فما سأله عن طلبته : قال له : ليس لى والنوعى طلب لديك إلا أن تردوا إلينا ما أخذتم من الإبل . فدهش أبرهة وقال له حيث تكلمنى فى شأن البيت أو فى شأن الإبل ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه ! .

ورث أبو طالب عن أبيه سماحة النفس ، ورحمة القلب ، ومهابة الرؤساء ، وقوة الإيمان ، فكان أحد الذين سادوا فى الجاهلية مع الإقلال . فقد شهر عنه أنه كان قليل المال ، الأمر الذى اضطره إلى ترك السقاية لأخيه العباس ، والذى جعل أباه عبد المطلب يشفق لحاله حين عهد إليه بالقيام على محمد بن عبد الله بعده ، ويود أن يشرك معه فى ذلك أحد إخوته وهو الزبير ، لولا إباؤه وترفعه . وقل أن تجتمع القلة والسيادة إلا لمثل آل طالب ، ومن هم فى سمو روحه ونبل خلاله .

وإن الدارس لخلال هذا الرجل ليأخذه العجب الشديد حين تطالعه من سجاياه تلك الحصانة النفسية التى أبعدته عن الدنايا ، وصرفته صرفا شديدا عن الصغائر ، وأكسبته على قلة ماله ورقة حاله سيادة ورياسة وتقدما فى قومه وعشيرته ؛ فقد حرم على نفسه الخمر كأبيه ، إيمانا منه بجرمها على العقل ، وامتهانها لكرامة الرجال .

وهو أول من سن القسامة فى الجاهلية فى دم عمر بن علقمة ، ثم جاء الإسلام فأقرها . وكان أغر ميمون النقيبة ، يبعث فى النفوس دائما الثقة وحسن الفأل .

مكتبتنا العربية

شهد بعض أيام الفجار ، وكان يحضرها معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ غلام ؛ فإذا حضر أبو طالب هزمت قيس ، وإذا لم يحضر دارت الدائرة على كنانة . ولما رأت ذلك كنانة رغبت الى أبى طالب ألا يغيب عنهم ، ففعل .

واشتغل بالتجارة فى الجاهلية ، فكان مثال الصدق وحسن المعاملة وشدة القناعة . وقد صحبه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أسفاره ، وقد شاهده أحد الكهان معه فى بعض رحلاته ، فقال : إن هذا الغلام سيكون له شأن فى تاريخ العالم ، وأخبر أبا طالب أنه يخشى عليه عدوان اليهود وكيدهم ، فخاف عليه ورجع به .

ولما مات أبوه ورث عنه السقاية والرفادة [1] كما نهض مكانه فى كفالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فبذل له من ذات نفسه وشدة عطفه وبره ما يدل على طبع أصيل فى الخير عريق فى البر والرحمة . كان يخصه بأحسن الطعام ولا يأكل إلا معه ولا ينام إلا إذا كان الى جانبه ، ولا يسافر لتجارة إلا كان فى صحبته .

ولا شك أن هذه الرعاية العظيمة كان مشدوها ما تجيش به نفسه من خوالج الرحمة ويخالط قلبه من عواطف البر والحنان . وإن كل مسلم ليحس فى قرارة نفسه الحب والإكبار لهذا الرجل الذى وقف كالصخرة العاتية لا ينفذ منها عدوان على رسول الله ولا صد لدعوته ولا تعويق عن أداء رسالته ، وطالما حاولوا أن يصدوه عن حماية محمد ومنعه ، تارة بالإقناع والملاينة ، وطورا بالوعيد والتهديد والمقاطعة ، فما أجدت معه حيلة ، ولا نفعت لديه وسيلة .

ويشاء الله مع هذا الحب العظيم لمحمد ، ومع تلك الرعاية والحياطة ، ومع ما لاح له من الآيات واتضح من العلامات ، ألا يدخل فى هذا الدين ؛ وذلك من أعاجيب القدر . ولقد أثر عنه أنه كان يقول :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

---

(١) السقاية : سقيا الحجيج أيام الموسم حتى يتفرقوا . وكانوا يصنعون حياضا من أدم توضع بفناء الكعبة وينقل اليها الماء العذب من الآبار وربما قذف فيها التمر والزبيب . والرفادة : طعام الحجاج أيام الموسم

مكتبتنا العربية

ورأى ولده عليا ذات يوم يصلى فسأله ماذا يصنع ، فلما نبأه قال له : أما إن محمدا لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه . وافتقد الرسول ذات ليلة فلم يجده ، وكان يخشى أن تغتاله قريش ، فخرج ومعه ابنه جعفر يبحثان عنه حتى وجداه فى بعض شعاب مكه يصلى وعلىّ عن يمينه ، فلما رآهما على هذه الحالة غلبه التأثر فبكى وقال لولده جعفر : تقدم وصل جناح ابن عمك . فأسلم جعفر فى الحال . وكان إذا رأى النبي صلى الله عليه وسلم أحيانا يغلبه البكاء ويقول : إننى إذا رأيته ذكرت أخى . وكثيراً ما كان يخاف عليه إذا عرف مضجعه ، فكان يقيمه ليلا من منامه ، ويضع ابنه عليا فى مكانه .

ومع هذا كله فلقد دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدين ، وكان شديد الحرص على إسلامه تواقا الى أن يسمع منه كلمة يشهد له بها عند الله ، ولكنه امتنع وقال : يا بن أخى إننى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شىء تكرهه ما بقيت ! .

وظل كذلك على رأيه وموقفه حتى عند موته ، إذ طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول كلمة يلقى بها ربه فامتنع وقال : لولا أن تقول العرب إن أبا طالب جزع عند الموت لأقررت بها عينك .

ولعل موقفه هذا وتمسكه بدين الأشياخ هو الذى جعل لنصرته لمحمد قيمتها وعظم من شأنها ، وجعل لها خطرها وجلالها بين القوم . فقد كان إعزازه للنبي وحفاظه عليه ووقوفه الى جانبه باسم العصبية لا باسم الدين ، وبحافز من القرابة لا من المشاركة فى العقيدة . وهذه ناحية لعلها توحى الى البعض أن يشاركه فيها أو حتى على الأقل يغضى عنه تقديرا لها فى نفسه . ولله فى خلقه شئون .

وطالما فزع إليه رؤساء قريش قائلين : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آراءنا ، فإما أن تكفه عنا أو تخلى بيننا وبينه . ولكنه كان يصرفهم بالقول اللين ، الى أن استفحل شرهم ، وعظم طغيانهم ، واشتد غيظهم ، فطلبوا من أبى طالب إما أن يكفه أو ينازلونه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين .

مكتبتنا العربية

هنا يقف أبو طالب فى موقف محيّر مجهد : هؤلاء قومه قد توعدوه بالإجماع على حربه وعداوته ولا طاقة له بذلك ، وهذا ابن أخيه الذى يعلم أنه يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم فى حاجة إلى النصرة والمساعدة ، وهو لهذا لا يستطيع خذلانه ، ولا تطيب نفسه بإسلامه .

وأخيرا وبعد لحظات تراكمت فيها همومه وتزاحمت آلامه ، بعث إلى محمد وقال له : يا ابن أخى إن قومك جاءونى وتوعدوا فى شأنك ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن الرسول أن عمه بدا له من نصرته وضجر من حمايته وضعف عن القيام دونه ، فأطرق هنيهة ثم قال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ... ! ثم غلبه التأثر فاستدبر باكيا وقام من لديه . هنا تغلب على أبى طالب بواعث الرحمة وعواطف البر والحنان فيناديه ثانية فيقبل ، فيقول له : يا ابن أخى اذهب فقل ما أحببت ، فوالله لن يصيبك منهم أذى ما حييت ! .

وكان هذا موقفا جديرا بأن يحفظ عليه رجال قريش وبنيه ثورة أئمة الكفر ، ولكنهم عرضوا عليه أمرا علهم يستبقون به وده ويحفظون به مكانته ، جاءوا إليه بعمارة بن الوليد وكان أنهد فتى وأجمل شاب فيهم ، وقالوا له : هذا عمارة بن الوليد فخذه لك وأسلم إلينا محمداً لنقتله فإنما هو رجل برجل . ولكنه يلتفت إليهم هازئا ساخرا مستخفا بهذا التفكير السقيم والرأى العليل ، ويقول : يا معشر قريش والله ما أنصفتمونى : تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا . فقال له صديقه المطعم بن عدى : يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئا . لعمرى لقد جهدوا فى التخلص مما تكره ، وأراك لا تنصفهم . فنظر إليه أبو طالب عاتبا وقال : والله ما أنصفونى ولا أنصفتنى ، ولكنك قد أجمعت على خذلانى ومظاهرة القوم على ؛ فاصنع ما بدا لك . وهنا يدخل أبو طالب فى صراع عنيف وجهاد مرير مع قومه ، يصاولهم بإيمانه ويقينه ، ويقارعهم بلسانه وبيانه ، ويحمل منهم ما تنوء به العصبة أولو القوة ، لا يضعف ولا يترد ولا يتخاذل .

وسنفصل ذلك إن شاء الله فى المقال التالى ؟

مكتبتنا العربية

مدرسة النقد الادبى

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد السلام أبو النجا سرحان
المدرس بكلية اللغة العربية

مقاييس النقد الأدبى :

نشأت مدرسة النقد الأدبى كما أسلفنا فى العصر الجاهلى : وكان عمادها الأول الذوق الأدبى الخالص ، ثم التست أرجاؤها بتوالى الايام وتعاقب الحقب .

وطبيعى أن تتسع آفاقها إلى حد التضارب ، لأن الأذواق متباينة ، والعوامل المختلفة من سياسية ودينية واجتماعية تؤثر عملها فى صمت وسكون : ولهذا كان من الصعب وضع مقياس دقيق يسير على وجه الدقة . يرجع إليه فى الحكم على الآثار الأدبية ، ولعل هذا المقياس حتى لا نقل المستحيل إمكان الموازنة بين آلاف الشعراء الذين تزخر بهم صفحات التاريخ ، حتى نعرف من أشعر الشعراء ، أو أدبى وأدبى ، لأن الذوق الأدبى ، كما يقول الكثير من علمائنا وأدبائنا أن يفعلوا .

وإذا كان من الصعب ـ كما يقول الآمدى (ص ١٧٨ موازنة) ـ أن نحكم بين عشرة آلاف درهم جيدة متماثلة الأجناس والألوان والجواهر ، فأشد إحالة أن نحكم بين عشرة آلاف بيت من الشعر ، كل منها درة من الأبيات الشعرية ، أو الشعراء .

لهذا نجد النقد فى أول أمره ، خواطر وصورا تجرى الإنصاف والعدالة : وقليل منها هو الذى يتسم بالشمول ، وقد اتجه النقاد اتجاهات مختلفة : وتأثروا بعوامل كثيرة ، فمنهم من جعل مقياسه الأدبى ، ووقفوا تحت مؤثرات نفسية وسياسية ودينية ، وجهتهم توجيها بعيدا عن الحق والصواب .

والباحث المنصف يلتمس لبعضهم عذرا إذا أغضى ـ فى نقده ـ عن بعض المآخذ : فللشعراء ألسنة حداد تمزق إهاب أى ناقد يتعرض لهم بسوء . وقد ذكرنا فيما سبق كيف جابه حسان النابغة بمعارض الشعر لأنه فضل عليه الأعشى : فما بالك بالأمر فى العصور التوالى ، حيث اشتد النقد ، وولغ الشعراء فى أعراض الناقدين .

وقد فطن عمر لهذه الناحية : فلم يتول حكما بين الشعراء ، ووكل ذلك إلى حسان كما تقدم . وهجا جرير كثيرا من الناس لأنهم فضلوا عليه الفرزدق . وحادثة بشار

مكتبتنا العربية

مع الأخفش حين نقده معروفة مشهورة ، [٣ ص ٢٠٩ أغانى دار الكتب] ، وكذلك هجاؤه لسيبويه حين لم يستشهد بشعره [ص ١٤٠ رسالة الغفران] . وقد سئل أبو عبيدة : أى الرجلين أشعر : أبو نواس أم ابن أبى عيينة ؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ؛ فقيل له : سبحان الله : كأن هذا ما تبين لك ! فقال : أنا من لم يتبين له هذا ! [ص ٦٠ عمدة] .

وقال المتوكل لحمدويه النديم : أيهما أشعر ؟ يعنى مروان بن أبى حفصة ، وعلى ابن الجهم ـ وكان مروان أثيراً عند المتوكل ـ فقال : يا أمير المؤمنين طرحتنى بين لحيى أسدين . قال : لتقولن ! قال : أعرفهما بالشعر أشعرهما . فقال المتوكل : ياعلى قد حكم عليك ، قال : علم رأيك فيه فساعدك . [ص ٩٧ جمع الجواهر] .

وكلام المتوكل هذا يدلنا على تأثير العلاقات الخاصة فى النقد . ومن الشاق على ناقد متدين أن ينصف شاعرا ماجنا خليعا ولو كان شعره فى أعلى الطبقات ، وصعب على البشر تجريد أنفسهم عن الأهواء الشخصية والنزعات السياسية والدينية : فالبشر هم البشر ، وسيظلون كذلك الى يوم المآب .

ويعجبنى فى هذا الموطن قول السيوطى : فأما الاختيار الذى يراه الناس للناس فشهوات ؛ كل يستحسن شيئا . [٢ ص ٢٩٢ مزهر] وقوله فى مكان آخر بعد أن سرد آراء كثير من النقاد فيمن هو أشعر الناس : وهذا يدل على اختلاف الأهواء وقلة الاتفاق [٢ ص ٢٩٩ مزهر نقلا عن ابن رشيق ١ ص ٨٠ عمدة] .

ومن آثار ذلك تناقض النقاد فى حكمهم على الأثر الأدبى الواحد : سأل المهدى المفضل الضبى عن أمدح بيت قالته العرب ، فقال : قول الخنساء :

أغر أبلج تأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

فاستحسن ذلك منها . ثم جاء ابن الرومى فاستهجن هذا المعنى بقوله :

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه ... من نسل شيبان بين الضال والسلم

كأنه الشمس فى البرج المنيف به ... على البرية لا نار على علم

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير :

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وعابه بعضهم بأن فرح الممدوح بعرض ينيله ليس شأن كبير الهمة [١ ص ٢٩ ديوان المعانى] . والمثل فى ذلك كثيرة .

مكتبتنا العربية

ومن آثار ذلك أيضا جرأة النقاد على تغيير بعض الكلمات المقدات تلوح لهم ؛ قال الأصمعي : قرأت على خلف الأحمر بعض شعر جرير ، فلما وصلت إلى قوله :

فيالك يوم خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر باطله

قال : ويحه ! ما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ فقلت : هكذا قرأته على أبي عمرو ابن العلاء . قال صدقت ، وكذا قال جرير، وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان أبو عمرو ليقرئك كما سمع . ثم قال : الأجود أن يكون « خيره دون شره » فاروه كذلك . وقد كانت الرواة قديما تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : والله لا أرويه إلا كذلك [١ ص ٣٥١ ديوان المعانى ، ص ١٢٥ موشح] .

وقد خطأه ابن رشيق فى هذا الإصلاح [٢ ص ٢٣٦ عمدة] وقال : إن الشاعر أراد أنه كان ليله فى وصال ثم فارق حبيبه نهارا ، وخلف جعله لم يفارق فغيّر عليه المعنى .

ولعل أعجب من هذا أن يناقض الناقد نفسه ، فيصدر حكما ثم ينقضه بعد ذلك اتباعا لشهوته : أنشد جحظة أمام الأصمعي قوله :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصدى ويشفى الغليل

إن ما قلّ منك يكثر عندى وكثير منك قد يحب القليل

فقال : لمن تنشدنى ؟ قال : لبعض الأعراب ، فقال والله هذا هو الديباج الخسروانى ! قال إنهما لليلتهما ؛ فقال : لا جرم والله إن أثر الصنعة باد عليهما ! [ص ١٠ موازنة] .

أما اختلاف النقاد فى أشعر بيت أو أشعر شاعر ، فذلك بحر لا ساحل له ، وليس له مقياس إلا الأذواق المختلفة والاعتبارات المتباينة ؛ قال ابن رشيق : « والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عددا ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، ولكل واحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقلما يجتمع على واحد . [١ ص ٧٦ عمدة] وقال ابن عبد ربه : « وهذا مما لا يدرك غايته ولا يوقف على حد منه » . والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتى منه بديع إلا أتى ما هو أبدع منه ، ولله در القائل : « أشعر الناس من أبدع فى شعره . [٦ ص ١٢٣ العقد الفريد] .

مكتبتنا العربية

تقرير
عن كتاب الفرقان
مرفوع الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر

أصدر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر قرارا بتأليف لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة : الشيخ محمد محمد المدنى المفتش بالأزهر ، والشيخ محمد على النجار المدرس بكلية اللغة العربية ، والشيخ عبد الفتاح القاضى المدرس بمعهد القراءات — لبحث كتاب « الفرقان لابن الخطيب » الذى ألفه محمد محمد عبد اللطيف أفندى ، وإبداء الرأى فيه .

وقد وضعت اللجنة هذا التقرير ورفعته الى فضيلة الأستاذ الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد : فقد قمنا — تنفيذا لأمر فضيلتكم — ببحث كتاب « الفرقان لابن الخطيب » الذى ألفه محمد محمد عبد اللطيف أفندى ، ومراجعة تقرير فضيلة الشيخ المشار اليه عنه ، وقد عقدنا لذلك عدة جلسات ، وانتهينا إلى التقرير الآتى :

مقـــدمة

فى مثل هذه الأيام من العام الماضى تسامع الناس أن ناشئا فى إحدى البيئات العلمية المدنية ، رمى القرآن بقول باطل ، واجترأ عليه بما لم يجترىء به أحد من قبل ، فزعم أن ما به من القصص ما هو إلا تمثيل وخيال لا حقيقة له :

مكتبتنا العربية

ولم يقف فى ذلك عند قصة أو قصص بعينها ، ولكنه طرد هذا الشأن فى كل ما قصه القرآن الكريم ، سواء فى ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والأمم ، وما جاء عن غيرهم ؛ ثم لم يقف عند القصص القرآنى ، بل طرد هذا الحكم — الحكم بالتخييل والتمثيل — على غيره مما جاء فى الكتاب الكريم من أوصاف ونسب ، ماضية كانت أو مستقبلة ، زاعماً أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلى أو لا تلتئم ، وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق ، وإنما هو أسلوب قصد به غرض فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة ، أو مشابهة للواقع النفسى الذى كان سائداً عند المعاصرين استقلالا لمعلوماتهم وإن لم تكن صحيحة فى سبيل الدعوة التى جاء بها .

ابتدأ هذا الناشىء قوله بهذه الفرية ، وأن يرمى بها أقدس ما يقدسه المسلمون ، وهو كتاب الله الذى يزلزل عقيدة الناس به ، ويشككهم فى معانيه ومراميه . وقد أثار هذا العمل الجريء ثائرة المؤمنين ، واستنكره كل ذى عقل وتفكير ، وتكاتفت جهود الباحثين على رده عن عمد وإطفاء جذوته .

واليوم — يا هذا — يثبت كاتب آخر ، فيجترىء على زعم باطل وفرية منكرة ، ويسند الفرية التى يرمى إليه هو هدف صاحبه من قبله : كتاب الله .

غير أنه لا يتحدث عن معانيه ومراميه ، ولكن عن رسمه وألفاظه وتلاوته : فيشكك المسلمين فى ذلك كله ، ويوهمهم أن كتاب الله لم يكن موضع تحقيق ودقة فى كتابته وأدائه وروايته ، وأن ما توارثوه من ذلك إن هو إلا خطأ وضلال مبين .

ومن العجب أن صاحب الفرية الجديدة ، لم ينبت كسابقه فى محيط علمى ، ولم يعرف له أثر يدل على التفكير والبحث والرغبة فى معرفة الحق ؛ ومع ذلك تعرض لشأن من أدق الشئون المتصلة بكتاب الله ، فألف ما سماه « الفرقان لابن الخطيب » . وفى هذه النسبة إيهام للقراء بأن هذا الكتاب لعالم قديم من علماء المسلمين يعرفه الناس بالدقة والبحث وشدة المعارضة وقوة التفكير . وقد اغتر بذلك فعلا كثير من القراء ، فاشتروا الكتاب على هذا الظن ، ثم تبين لهم أنه ليس لابن الخطيب ، وإنما هو لمحمد محمد عبد اللطيف افندى .

مكتبتنا العربية

وإذا كان الكتاب كما يقولون : يقرأ من عنوانه ، فإن نسبة هذا الكتاب إلى جانب عنوانه ، أمارة على ما تنطوى عليه نفس كاتبه من رغبة فى الإيهام والتضليل .

* * *

وأول ما يجب أن نسجله عن هذا الكتاب ، أنه ليس بحثاً علمياً على الطريقة الاستدلالية التى تعتمد الدرس والموازنة ، والاستنتاج الصحيح ، وإنما هو كتاب تضمن مجموعة من الآراء المردودة ، والأقوال الباطلة فى رواياتها أو معناها ، والمذاهب البائدة التى لم يعدّ أحد من المسلمين يركن إليها أو يعبأ بها ، والتى ليس لها أن تنهض فى وجه ما يبطلها مستنداً الى التواتر وإجماع المسلمين .

رأى المؤلف هذه الآراء المردودة مذكورة فى كتب العلماء الذين تعودوا تسجيل كل شىء يصل اليهم ، احتفاظا بناحية من نواحى التاريخ العلمى ، فحشدها فى كتابه مستدلا بها على ما يستحسنه فى رسم المصحف أو تلاوته ، دون أن يأتى بجديد من عنده ، اللهم إلا التهجم على مقام الأصحاب رضى الله عنهم ، وعلى القراء الذين نقلوا الى المسلمين كتابهم نقلا متواترا بهيئاته وقراءاته فى ضبط وتحر ودقة هى مضرب الأمثال ؛ وكأنما لم يكفه ذلك ، فصوّر المصحف المتواتر فى الأمة جيلا بعد جيل ، مزيجاً من الأخطاء الفاحشة ، والمتناقضات المتباينة فى الهجاء والرسم ، تلك الأخطاء التى جاءت بها كتبته الأولى سقيمة الوضع غير محكمة الصنع (ص ٥٧) . كما خيل للقراء أن القراءات السبع المتواترة إنما جاءت من اختلاف رسم المصحف والتباس هذا الرسم على القراء (ص ١٢٢) الى غير ذلك .

تحدث المؤلف فى كتابه عن عدة موضوعات ، ونحن نتكلم عن أهمها ، مبينين ما فى حديثه عنها من خطأ وزيف .

أولا — رسم المصحف

تناول المؤلف موضوع رسم المصحف بكثير من التخليط ، وقرر أنه يجب كتابته حسب القواعد الإملائية الحديثة ، وارتكب فى سبيل تبرير ذلك عدة أوزار ما كان ينبغى له أن يجترىء على ارتكابها :

مكتبتنا العربية

(١) منها أنه رمى الصحابة الذين كتبوا المصحف بالعجز والخطأ والضعف فى الرسم ، وصوّرهم للناس كتبة ضعفاء غير خبيرين بما يفعلون ، رسمو المصحف كما تأتّى لهم على غير هدى ، حتى وقعوا فى كثير من الأخطاء المتناقضة .

(٢) ومنها أنه عقد فصلا بعنوان : لحن الكتّاب فى المصحف ، زعم فيه أن بالمصحف لحنا ومخالفة للقواعد العربية ، ومثّل لذلك بقوله تعالى « إن هذان لساحران » ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » ، « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » ، فأصدق وأكن من الصالحين » .

وقد ساق المؤلف فى ذلك روايات عن عائشة وسعيد بن جبير وأبان بن عثمان ، وكلها روايات مردودة أوضعيفة ، ليس لذى رأى أن يعارض بها ما ثبت بالتواتر جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا : وقد بين العلماء الأوجه الإعرابية لهذه الألفاظ وأمثالها ، كما بينوا المعانى البلاغية المستفادة منها .

وجاء فى هذا الفصل أيضا أن بالمصحف تغييرا فى الكلمات ، نتيجة تحريف الهجاء : فمن ذلك « والذين يُؤتون ما آتوا » بدل « والذين يأتون ما أتوا » وقد علق المؤلف على ذلك بأن الأولى هى القراءة المشهورة ، وأن أحدا من القراء لم يورد القراءة الثانية مع وثوق روايتها عن عائشة ، وهى مَن هى فى قربها . وقد جهل أو تجاهل أن القراء الذين أجمعوا على قراءة « يؤتون ما آتوا » قد استندوا الى تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بالتواتر ، وأن رواية عائشة هذه إن صحت فهى رواية آحاد لا يثبت بمثلها القرآن .

ومن ذلك « حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » بدل « حتى تستأذنوا » و « أفلم ييأس الذين آمنوا » بدل « أفلم يتبين الذين آمنوا » و « وقضى ربك » بدل « ووصى ربك » وروى عن ابن عباس أنه قال فى « حتى تستأنسوا » : إنما هى خطأ من الكاتب ، وفى « أفلم ييأس » : أظن أن الكاتب قد كتبها وهو ناعس . وفى « وقضى ربك » أن الواو قد التزقت بالصاد ، كما روى فى الأخيرة عن الضحاك : إنما هى « ووصى ربك » ، وكذلك كانت تقرأ وتكتب ، فاستمد كاتبكم فاحتمل القلم مدادا كثيرا ، فالتزقت الواو بالصاد .

وروى عن ابن عباس أيضا أن الواو فى قوله تعالى « ولقد آتينا موسى

مكتبتنا العربية

وهرون الفرقان وضياء ، زائدة ، ومكانها قوله تعالى « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » يريد بذلك أن تقرأ : والذين قال لهم الناس .

وروى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : مثل نور المؤمن كمشكاة ، بدل « مثل نوره كمشكاة » . ولا شك أن مثل هذه الروايات لا يعبأ بها ، وليس لها قيمة أمام تواتر المصحف ، وأنه لم يكن المعول عليه فى رواية كلام الله هو الكتابة ، وإنما المعول عليه هو التلقى بالمشافهة .

وقد قال أبو حيان : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك ـ أى تستأذنوا بدل تستأنسوا ـ فهو طاعن فى الإسلام ملحد فى الدين ، وابن عباس برىء من هذا القول .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف ، وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ، أنه فسّر تستأنسوا ، فقال : أى تستأذنوا ممن يملك الإذن من أصحابها . يعنى أصحاب البيوت .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وإذن فهذا تفسير لا قراءة .

ويقول أبو حيان أيضا فى شأن ما روى عن ابن عباس من قراءة « أفلم يتبين » بدل « أفلم ييأس » : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزمخشرى « ونحن ممن لا يصدق هذا فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى الإمام (أى المصحف الإمام) ، وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام المحتاطين لدين الله المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أقيم عليها البناء . هذا والله فرية ما فيها مرية » ! .

وقد استفاضت الروايات عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وقضى ربك » . وفى هذا دليل على أن الرواية المنسوبة إليه من التصاق الواو بالصاد ، رواية ملفقة لا أصل لها . قال أبو حيان فى البحر : والمتواتر هو « وقضى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وصى » .

مكتبتنا العربية

هذا والقاعدة العامة فى مثل ذلك ، أن يقال بأن هذه الروايات مهما كان سندها صحيحا فإنها مخالفة المتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود .

ولا ينبغى لمسلم يحترم القرآن ويؤمن به ولا يداخله الريب فيه ، أن يسوق مثل هذه الأقوال المردودة : فإن هذا من عمل أعداء الإسلام قديما ، وقد استغله أعداء الإسلام حديثا من المستشرقين والمارقين ، طعنا فى أساس الدين ، وتوهينا لثقة المؤمنين بكتاب ربهم : ودون ذلك خرط القتاد ، لو كانوا يعلمون .

ولا ندرى ماذا يريد المؤلف بسرد هذه الروايات وأمثالها فى كتابه : أيريد أن يطلب الى المسلمين إصلاح كتابهم وتقويم لحنه ، فيكتبوا « والصابئين » « والمقيمين » « فأصدق وأكون » و « تستأذنوا وتسلموا » و « ووصى ربك » و « يأتون ما أتوا » وأمثال ذلك على مقتضى الروايات التى ساقها ، أم يريد منهم أن يستمروا على ما فى المصحف مما حكم عليه هذه الروايات بأنه خطأ من الكاتب أو لحن فى القواعد ؟ وكيف إذن يطمئن المؤمن الى كتاب ربه وقد داخله الشك فى نقله وروايته ؟ ثم ما علاقة هذا كله بوجوب كتابة القرآن بالرسم الحديث ، والفرض أن الإملاء الحديث ، والإملاء القديم ، فى مثل هذه الكلمات الملحونة أو المبدلة سواء ؟ !

لقد أساء المؤلف أيما إساءة فى هذا الفصل الى المسلمين فى أقدس ما يتقدسونه ، ولم تفده هذه الإساءة فيما أراد إثباته أية فائدة علمية فى بحثه الذى هو بصدده من وجوب كتابة المصحف بالإملاء الحديث .

ولو كان المؤلف فى إيراده أمثال هذه الروايات حسن النية منصفا للعلم والبحث ، لعلق عليها بما يفيد أنها روايات مردودة ، أو ذكر كلام العلماء عنها ؛ ولكنه يرويها ويعلق عليها فى هوامش كتابه بما يفيد رضاه عنها ، وميله إليها ، فى الوقت الذى يتنكر فيه لما تلقاه المسلمون بإجماع وتواتر وقبول . فيا لله للعلم والدرس والبحث !

مكتبتنا العربية

(٣) وقد عقد المؤلف فصلا آخر بعنوان « ما غيره الحجاج فى المصحف » يخرج منه القارىء بأن الحجّاج قد جاء الى مصحف عثمان فوجد فيه أخطاء فى مواضع عدتها اثنا عشر موضعا ، هى :

١ — لم يتسنه	وكانت فى المصحف	« لم يتسن »	
٢ — شرعة ومنهاجا	« «	« شريعة ومنهاجا »	
٣ — يسيركم فى البر والبحر	« «	« ينشركم »	
٤ — أنا أنبئكم بتأويله	« «	« آتيكم بتأويله »	
٥ — سيقولون الله	« «	« سيقولون لله »	سورة المؤمنون ٨٧ ، ٨٩
٦ — سيقولون الله	« «	« سيقولون لله »	
٧ — من المخرجين	« «	« من المرجومين »	سورة الشعراء ١١٦ ، ١٦٧
٨ — من المرجومين	« «	« من المخرجين »	
٩ — معيشتهم	« «	« معايشهم »	
١٠ — غير آسن	« «	« غير ياسن »	
١١ — فالذين آمنوا منكم وأنفقوا	« «	« فالذين آمنوا منكم واتقوا »	
١٢ — وما هو على الغيب بضنين	« «	« وما هو على الغيب بظنين »	

ويلاحظ أن فى هذه المواضع التى يزعم أن الحجاج غيرها ، مواضع تقرأ بالقراءتين ، ومواضع لم يقرأ أحد من القراء بها .

والقارىء يفهم من هذا أن مصحف عثمان ظل بهذه الأخطاء والمسلمون عنها ساكتون إلى زمن الحجاج ، وهو زعم لا دليل عليه ، ولم يسنده المؤلف إلى أحد من القدماء أو المحدثين ، وإنما اكتفى بأن يسوقه هكذا بقوله « قد غير الحجاج فى المصحف الذى كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه إثنا عشر موضعاً [1] ثم سردها كأن الأمر فى ذلك حقيقة مسلمة مشهورة لا يحتاج إلى إسناد . « يتبع »

---

(١) هكذا كتبها [إثنا عشر] .

مكتبتنا العربية

فهرس

الجزء العشرون

صفحة

... ... صاحب العزة مدير المجلة ... ٣

... ... ٥

... ... صاحب العزة مدير المجلة ... ٩

... ... الأستاذ الشيخ طه الساكت ... ١٣

... ... « الطيب حسن النجار ... ١٦

... ... « محمد محمد المدنى ٢٠

... ... « عبد الجواد رمضان ... ٢٦

... ... « محمد يوسف الشيخ ... ٣٢

... ... « عبد الرحيم العدوى ... ٣٦

... ... « أبو الوفا المراغى ... ٤١

... ... الدكتور احمد محمد ابراهيم ٤٦

... ... الأستاذ الشيخ محمد النجار ... ٥٠

... ... « محمود الشرقاوى ٥٤

... ... الدكتور محمد والى خان ٥٨

... ... صالح بكير ٦٠

... ... فى الديار المصرية ٦٥

... ... الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ٦٦

... ... « « على رفاعى ٧٠

... ... الأستاذ عمر طلعت زهران ٧٤

... ... الأستاذ أحمد محمد سلو ... ٧٨

... ... « « عبد الحميد المسلوت ... ٨٢

... ... « « عبد السلام سرحان ... ٨٧

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى